انتهاكات

جورج باطاي

أفكر كما تتجرد فتاة من فستانها

الماركيز دو ساد

مهاجمة الشمس

دورية عربية في الفكر والإبداع- العدد صفر- خريف 2014



دورية عربية في الفكر والإبداع • العدد صفر • خريف 2014

- سيتم الإعلان عن الهيئة الاستشارية للمجلة في العدد 1
- غلافا الواجهة والخلفية من تصميم الفنان العراقي قصي طارق.
- تمنع إعادة نشر أية مادة من المجلة دون إذن من محرريها.
- ترتيب المواد يخضع لضرورات فنية.
- شروط النشر: أن ترسل المادة حصريا للدورية بهيأة word، مع الهوامش والإحالات أسفل كل صفحة أوتوماتيكيا، وإن كان النص مرفقا بالصور ينبغي أن تكون عالية الجودة بهيأة jpeg.
- يمكن للهيأة الاستشارية أن تطلب من كُتَّابِهَا بعض التعديلات على نصوصهم.


intihaket@gmail.com


nomene.blogspot.com


facebook.com/bataille7


@MohamedNomene

فَهْرَسٌ

● المحور I: الْمَارْكِيزْ دُو سَادْ ●

● المحور II: جُورْجْ بَاطَايْ ●

● المحور I: الْمَارْكِيزْ دُو سَادْ ●

[تحيةً إلى محمد عيد إبراهيم:

إلى ذكرى ناشر ساد الفرنسي، جان جاك پُّوڤِير، الذي توفي أثناء تحرير مواد المجلة.]



ب فَضَائِحِيَّتِهِ، التي كَثُرَتْ فِيها المزَاعِمُ وَنَدُرَ فيها الواقع، التي تمت فيها المماهَاةُ بين الكاتب وشخصياته، صار الْمَارْكِيزْ دُو سَادْ [Marquis de Sade] — يا لمهزلة النقد الاختزالي والقراءة المتَلَصِّصَةِ/ المترصِّدَةِ! — مرجعيةً لا تُقْرَأُ، وإن قُرِأَتْ شُوِّهَتْ، وأوَّلُهَا قَرْنُ فْرُويْدْ [Freud]، اشتقاقا وتوصيفا مَرَضِيًّا، بين ساد والسادية؛ مرورا بإهمال ميشيل فوكو [Foucault] — "أَرْشِيفِيِّ" الحقبة الحديثة، في تأريخه للجنون والاعتقال واستعمال اللَّذَّاتِ — لإبداعات ساد المسرحية، نصا وفُرْجَةً، ليختزله في حالةٍ عيادية مطرودة خارج أسوار المدينة؛ دون أن ينتهي الأمر بكتاب ميشيل أونفراي [Onfray]، الصادر حديثا، والمشكك في كل الشحنة الإبداعية/الاحتجاجية في كتابة وإبداع "الماركيز الإلهي". وربما تكون مقاربة الثلاثي بلانشو/باطاي/رولان بارث [Blanchot, Bataille, Barthes]، باءات النقد الفرنسي الثلاث وأَثَافِيهِ، الأكثر إنصافا في مقاربة كتابة وفكر ساد. غربيا، عموما، ما زالت حالة ساد مزعِجة، شرسة، خلافية.

*

عربيا، رغم كل إرثنا الثقافي الأيروتيكي والإباحي [ألف ليلة وليلة، امرؤ القيس، عمر بن أبي ربيعة، أبو نواس، السيوطي، التيفاشي، واللائحة تطول حَتَّ **برهان العسل**]، لم يستطع مشهدنا بعد تلقي/تقبل ساد، ربما لأن الجسد العربي، التراثي عموما، والمعاصر في أغلبيته الساحقة، جسد لا يفكر، بعكس الجسد لدى ساد، الذي يزاوج بين المنْجَزِ السردي واستطراداته المفكرة.

من حسن الحظ أن ثلاثة نصوص يتيمة راوغت الرقابة، ذاتيةً ودَوْلَتِيَّةً: قصة **محاورة كاهن ومُحْتَضَرٌ**، من ترجمة المبدع والسينمائي اللبناني الراحل سحبان أحمد مروّة [ننشرها كاملةً هنا]، مقتطف من قصة **فلورفيل وكورفال** من ترجمة محمد أسليم[ننشره هنا] ورواية **جوستين** من ترجمة محمد عيد إبراهيم [ننشر مقتطفا منها هنا أيضا].

*

وسنتولى في المجلة، عبر ملفات قادمة، تقديم نصوص ساد والمقاربات النقدية التي تناولته، عبر ترجمات جديدة، حُمَمٍ مِنْ بركَانٍ لَا يَخْبُو.

[انتهاكات]

الْمَارْكِيزْ دُو سَادْ: إِضَاءَاتٌ

Ce n'est point ma façon de penser qui a fait mon malheur, c'est celle des autres.

لَيْسَتْ طَرِيقَتِي فِي التَّفْكِير هِيَ الَّتِي تَسَبَّبَتْ فِي مَأْسَاتِي، بَلْ طَرِيقَةُ الْآخَرِينَ.

Quand l'athéisme voudra des martyrs, qu'il les désigne, et mon sang est tout prêt.

إِنِ احْتَاجَ الْإِلْحَادُ إِلَى شُهَدَاءَ، فَلْيُعَيِّنْهُمْ، وَدَمِي فِي أَتَمِّ الْاسْتِعْدَادِ.

Tout est bon quand il est excessif.

كُلُّ شَيْءٍ جَمِيلٌ حِينَ يَكُونُ مُسْرِفًا.

Je suis l'homme de la nature avant d'être celui de la société.

أَنَا إِنْسَانٌ يَنْتَسِبُ إِلَى الطَّبِيعَةِ قَبْلَ أَنْ أَنْتَسِبَ إِلَى المجْتَمَعِ.

Voir, c'est croire; mais sentir, c'est être sûr!

أَنْ ترى يَعْنِي أَنْ تُؤْمِنَ؛ لَكِنْ أَنْ تُحِسَّ، فَيَعْنِي أَنْ تَتَيَقَّنَ!

Tout le bonheur des hommes est dans l'imagination.

كُلُّ سَعَادَةِ الْبَشَرِ تَتَجَلَّى فِي المخُيِّلَةِ.

Tous les hommes sont fous, et qui n'en veut point voir doit rester dans sa chambre et casser son miroir.

كُلُّ الْبَشَرِ مَجَانِينُ، وَمَنْ لَا يريدُ أَنْ يَنْتَبِهَ إِلَى ذَلِكَ أَبَدًا فَمَا عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يَبْقَى فِي غُرْفَتِهِ وَيَكْسِرَ مِرْآتَهُ.

C'est dans le silence des lois que naissent les grandes actions.

فِي صَمْتِ الْقَوَانِينِ تَنْشَأُ الْأَفْعَالُ الْعَظِيمَةُ.

On déclame contre les passions sans songer que c'est à leur flambeau que la philosophie allume le sien.

تَتَوَجَّهُ خُطَبُنَا ضِدَّ الْأَهْوَاءِ دُونَ أَنْ نَتَفَكَّرَ بِأَنَّ الْفَلْسَفَةَ تُوْقِدُ مِشْعَلَهَا مِنْ نَارِ هَاتِهِ الْأَهْوَاءِ.

Je ne m'adresse qu'à des gens capables de m'entendre, et ceux-là me liront sans danger.

أُوَجِّهُ خِطَابِي لِلْقَادِرِينَ عَلَى إِدْرَاكِي، وَأُوْلَاءِ سَيَقْرَؤُونَنِي دُونَ مَخَاطِرَ.

Les rêves sont des mouvements secrets qu'on ne met pas assez à leur vraie place.

اَلْأَحْلَامُ حَرَكَاتٌ سِرِّيَّةٌ لَا نَضَعُهَا كَمَا يَنْبَغِي فِي مَكَانِهَا الْحَقِيقِيِّ.

Vous m'avez fait former des fantômes qu'il faudra que je réalise.

صَوَّرْتُمْ لِي أَشْبَاحًا عَلَيَّ أَنْ أَجْعَلَهَا وَاقِعِيَّةً.

C'est seulement en côtoyant l'excès qu'on trouve la liberté.

فَقَطْ بِمُجَاوَرَةِ الْإِسْرَافِ نُلَاقِي الْحُرِّيَّةَ.

Le pouvoir est par nature, criminel.

اَلسُّلْطَةُ بِطَبْعِهَا مُجْرِمَةٌ.

L'insurrection n'est point un état moral; elle doit être pourtant l'état permanent d'une république.

لَيْسَ اَلْعِصْيَانُ قَطُّ حَالَةً أَخْلَاقِيَّةً؛ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ رَغْمَ ذَلِكَ الْحَالَةَ الدَّائِمَةَ لِلْجُمْهُورِيَّةِ.

[انتخاب وترجمة: ر.و.]

إلى سيدتي الغالية: نعم، كنستانس، إليكِ، لذكائكِ وفهمكِ المتوقّدَين، أُهدي هذا الكتاب. أنتِ، طبعاً، من سيقدّر عذوبة دموع الفضيلة التعسة. وبقوة تشجيعكِ لا أهاب وصف الأحداث والأحاديث والشخوص الضرورية في هذه الرواية. وقد خفّفتُ خطوطاً معينة من الصور الساخرة قدر الممكن، حتى لا ترعبكِ. فالرذيلة تهزأ بوضعيتها، تصرخ خزياً وهي تُهاجَم: الصرخة التي دبرها المتعصّبون ضدّ **طرطوف**، هي الصرخة نفسها التي سيُشهرها المتهتّكون ضدّ **جوستين**. لكني لا يعنيني هؤلاء في شيء. فإليكِ والآخرين أمثالكِ تتّضح بواعثي، وبكم تُفهَم. ورأيكِ يكفيني. لو سررتكِ، فسأسرّ الجميع. بكِ وبعطفكِ وحده أهتمّ؛ أما استنكاف الآخرين مني وتقريعهم لي فلن يثير إلا أساي وأصرف بالي عنهم.

بنيان هذه الرواية غريب دون شكّ. حيث تبدو الرذيلة بكلّ مكان ظافرة، أما الفضيلة فضحيّة قرابينها. هنا امرأة تعسة الحظّ تصبح ألعوبة الشرّ والغواية: تتعرّض لأشدّ الميول فساداً وبربرية: فريسة دائمة لأشدّ الأهواء وقاحة ومراوغة: ولا تملك غير رقّة روحها التي تُقارع بها المزيد من الحظوظ العاثرة والكثير من الانحلال. قُصارى القول، لقد جازفتُ بكتابة أجرأ الصور، أكثر المواقف استثنائية وأعتى قواعد السلوك ضراوة..

فهل وفّقتُ، يا كنستانس؟ هل تطفر دمعة من مآقيكِ بضمان توفيقي؟ لو أتيح لكِ قراءة **جوستين**، أفلن تقولي أخيراً: "آه، كم تحفزني صور الجريمة على التباهي بعشق الفضيلة! وكم ستكون سامية دموع الضحيّة! وكم سيرفعها حظّها التعس إلى ذُرى النبالة!"

آهٍ، يا كنستانس! دعي كلماتي هذه تقطر من شفتيكِ، فبها تتوّجين كلّ ما عملت يداي!

[ساد]

*

على رغم الأشواك التي ظلت تخِز جوستين بسيرتها العصيبة مع الفضيلة، كانت تعود دائماً إلى الله ومشاعر الحبّ والتسليم. وقد أيقنت أن شفاعة إلهها الطيب الذي تعبده هي وحدها ما يسّر هروبها المعجز من محفل موتا العالي. تحسّ، مهما كان هذا الحسّ، أنه حاميها على الدوام. أفلم يوجَد من هو أكثر أسىً منها؟ نعم، وهي تمتنّ عميقاً لكلّ ما صنعت يداه.

بمثل هذه المشاعر ارتاحت جوستين في خان قرب بلدة ديجون.

بُعيد مسافة من ديجون، وقد أوشك المساء، انسلّ خلفها رجلان، فألقيا عباءة على رأسها لحجب رؤيتها أو صراخها، صفّداها كالمجرمين وهما يسحبانها دون أدنى كلمة للمضيّ معهما.

سارا بها قرابة ساعتين على درب تُخفيه عيناها المعصوبتان. كانت تتنفّس بمشقّة، فاقترح أحدهما إفساح المجال لمزيد من الهواء. كشفا رأسها. خشيت أن يستعيدها عملاء النسّاك، فشلّها الخوف.
قالت "إلى أين نذهب؟ وماذا ستفعلان بي؟"

ردّ أحدهما "هدّئي من رَوعكِ، فلن نفعل شيئاً. لا تدعي ما نتّخذه من احتياطات يقلقكِ. سنأخذكِ إلى سيد عظيم. يريد خادمة لزوجته، وهو علّة هذا الغموض، لكن لن يلحقكِ أذىً".

"آهٍ سادتي، إن كان فيه سعادتي، فلماذا ترغموني. ولمَ الخوف من هربي؟ أنا يتيمة بائسة، أستحقّ الشفقة؛ وكلّ ما أطلبه مجرد مأوى!".

قال أحدهما "هي على حقّ! فلنُرحها أكثر، فقط نمسك يديها".

مسكاها وواصلا. ولدى رؤيتها خَنوعاً ساكنة، كلّماها برقّة. علمت منهما أخيراً أن من سيأخذانها إليه هو المركيز دي جرنان، نبيل ثريّ يعيش وحده بالريف.
"وحده؟"

"نعم، فهو زاهد فيلسوف. لا يكاد يرى أحداً".

سألت جوستين "ولمَ هذه الاستحكامات؟"

"السبب، كما سترين، أن زوجة سيّدنا عقلها مفكوك قليلاً. لا تترك حجرتها، ويجب مراقبتها طيلة الوقت. وطبعاً لا يبغي أحد وظيفة كهذه. فلو أخبرناكِ قبلها لتفاديت تقلّد الوظيفة، فاستوجب أن نأخذكِ عنوة".
بكت جوستين "ماذا! أصبح أسيرة هذه المرأة!"

"طبعاً، وما في هذا! سيمضي كلّه على خير، وسنرعاكِ. لا تقلقي".

"يا أللّه!"

"هيا تعالي؛ لا أمر يدوم للأبد. كما أنها وظيفة مضمونة وفيها مال كثير".

لاح أمامهم منزل كبير. يبدو خاوياً مهجوراً كلّما اقتربوا منه.

أُخذت جوستين إلى المركيز، وقد تمدّد بأريكة واطئة. قربه شابان في زيّ مُخَنّثين، دهنا شعريهما بزيوت عطرة. وجهان جميلان، شاحبان كأنهما مريضان.

قال أحدهما للمركيز، وهو يومئ نحو جوستين "أخيراً فتاة من أجلكَ! تفتّش عن عمل. أظنّها تنفع".

فردّ "لويس. أغلق خلفكَ الباب، تأكّد أنه لن يدخل أحد حتى أدعوه".

نهض المركيز دي جرنان وباشر متلمّساً ذراعَي جوستين. فحص سريع بليد، ثم سألها عن طبيعة العمل الذي أدّته من قبل. أخبرته جوستين عن حياتها فقال "رائع، أحسن شيء؛ ستنفعين أكثر في منزلي. من الطيب أن يلازم الحظّ التعس خطوات كلّ وضيع تسلّل قرب أرضنا".

قالت جوستين "لكن سيدي، أخبرتكَ عن مولدي، فلم يكن وضيعاً".

فنحّاها جانباً "نعم، نعم. أعي ذلك كلّه. فالناس تهوى دائماً انتحال شخصية وهُم نكرة. أوهام من الزهو. على أيّ حال، الأمر سيان عندي: فأنا أراكِ شبه خادمة، وتلبسين مثل خادمة؛ آخذكِ على هذا المحمل. مع ذلك" وتطلّع فيها حانقاً "بيدكِ، مسألة السعادة هنا. بقليل من الصبر والتمييز، وخلال عدّة سنوات سأُعفيكِ من هنا بما يكفي من المال لتعيشي في بحبوحة على حسابكِ الخاص".

ثم تناول ذراعيها ثانية، الأول فالآخر، شمّر كمّيها، أنعم البصر فيها بفضول.

سأل "هل نزفتِ من قبل؟"

قالت جوستين، دهشةً من سؤاله "لا سيدي".
فقال، يحدّق فيها نزقاً "أودّ أن أعرف قوامكِ. فليس لي أن أرى خللاً بالمكان الذي ستشغلينه، وعليكِ أن تظهري كلّ ما في طاقتكِ".

حاولت إيقافه، فثار يخبرها ألاّ تلعب عليه دور المحتشمة، فلديه الوسائل الأكيدة أن تكون له اليد العليا على النساء. قال "ما أخبرتني عن نفسكِ لا ينذر بأرفع فضيلة. ولا مكان لسبل مقاومتكِ فهي مضحكة!"

أدركت أنها دون حماية مع رجل قد يُحيلها لتراب بلكمة من قبضته، فخضعَت.

أومأ المركيز لرفيقيه الشابين، فاقتربا من جوستين وحضناها، مسّها بخشونة وهو ممتلئ حماسة عنيدة. ثم شدّها لحجرة مجاورة فيها شابان جميلان آخران يعملان بالتطريز. نهضا عند دخول المركيز.

قال لأحدهما "نرسيس، هذه خادمة زوجتي الجديدة؛ سأختبرها. فسلّمني المباضع".

فتح نرسيس علبة فأخرج أدوات النزف.

قال المركيز للشاب الآخر "أرِحها، يا زفير".

أُسندت على ركبتيها جنب كرسيّ عال وسط الحجرة. ثم ثُبّت ذراعاها بوشاحين أسودين موصولين بالسقف. اقترب المركيز، بمبضع في يده. عيناه رطبتان، لاهث الأنفاس. فربط ذراعيها، وشرع ينخسهما بحركات سريعة كالطير. بدأ دمها ينبجس، وكان على وقع المنظر ينخُر باللذة. مضى ليجلس مقابل جوستين، بُعيد ستة أقدام. نضّ عنه ما يلبسه من رداء خفيف. ولم ينحّ عينيه المحترقتين لحظة عن الدم الذي ينقّط منها في وعاءين أبيضين تحت ذراعيها. لبث نرسيس وزفير جنب سيدهما المنكبّ على رؤية الجداول الحمراء التي تطقّ بالوعاءين.

أحسّت جوستين نفسها موهَنة للغاية. قالت وهي لا تكاد تلهث "كفى، لخاطر الله كُفّوا!.. ارحموني.. إنني أتهافت..". وبدأت تترنّح، لكن الوشاحين منعاها من السقوط. فمال رأسها على جانب من كتفها وتلطّخ وجهها بالدم.

*

رُدّ على جوستين الوعي، فوجدت نفسها راقدة بفراش دافئ وثير. قربها مرأتان

عجوزان، قدّمتا إليها بعض المرق مجرد أن فتّحت عينيها.

أمرها المركيز صباح اليوم الرابع أن تأتيه للكلام معه. فاقتيدت لحجرة استقباله، وهي مضَعضَعة نوعاً.

قال وهو يرشدها لتجلس "تريز، لن أجرّب عليكِ هذا ثانية، نادراً. ستفيدينني في أغراض. أردتُ فقط أن أعطيكِ فكرة عن أهوائي. مع ذلك، ستكون هذه نهايتكِ لو مرة خنتني، بأيّ طريقة، أو أدخلتِ زوجتي تحت رحمتكِ. لكن لا تتصوّري أني أعاملها هكذا من ضغينة أو احتقار. بل ملء عاطفتي. لا شيء يعادل ما أحسّه من لذّة وأنا أفصد دمها! فهو يفضي إلى رأسي ببساطة وأنا أراه يتدفّق. لا أتمتّع بطريقة أخرى قطّ، على رغم مضيّ ثلاث سنوات منذ زواجي بها. كلّ رابع يوم تتلقّى المعاملة ذاتها التي جرّبتِها. ولأنها في حدود العشرين، فشبابها يتحمّل، مع الرعاية التي تلقاها. وهذا السبب الذي لا يجعلني أُفلتها أو أسمح لها برؤية أحد. أُوهم الناس أنها مجنونة، بينما تعيش أمها، قريبتها الوحيدة، على بُعد ستة أقدام من هنا في قصرها، مقتنعة أنها لا تجرؤ على المجيء لرؤيتها. ستواصل زوجتي هكذا طالما تستطيع، ولن تحتاج شيئاً وهي تحيا هنا. أحبّ أن أُتلفها على مهلٍ، إلا أنني أسعى لبقائها على قيد الحياة قدر الممكن. بعد أن يُعجزها الصمود، ليُعنها اللّه! فهي امرأتي الرابعة . هناك جميلة أخرى ستكون الخامسة. ولا يسبب لي مصير امرأة أدنى اضطراب. ففي الدنيا كثيرات منهن، ولا يسعدنا غير تبديلهنّ! فكوني هكذا قدر استطاعتكِ. مهمتك، يا تريز، رعايتها. فهي تخسر كمية منتظمة من الدم كلّ أربعة أيام. لا يُغمى عليها الآن، فقد اعتادت عليه. يدوم شحوبها أربعاً وعشرين ساعة؛ وتُمضي الأيام الثلاثة الأخرى على خير. لكنكِ بسهولة تدركين أنها تبغض هذه الحياة. ستفعل أيّ شيء ليُطلق سراحها، أو لتدع أمها تعرف حالتها الحقيقية. ظفرت مرة بثقة خادمتين، لكني كشفتهما في حينها، فأوقفتُ المناورة. تسبّبَت في موت البائستين وتندم على ذلك حتى اليوم. وهي مستسلمة أكثر الآن في تقبّل مصيرها، وتعد بألاّ تسعى للظفَر بثقة المزيد مما أجلبه إليها من خادمات. لذلك أُضطرّ لأخذ الخادمات عنوة، كما في حالتكِ، كي أتفادى

الدعاوى القضائية. لن آخذكِ لمنزل أحد، لن أعطي تفاصيل عنكِ لأحد، وسأفعل ما يحلو لي معكِ لو حاولتِ خيانتي. لن أورّط نفسي في متاعب حتى لو قتلتكِ. ويُستحسن، يا طفلتي، أن تحسبي خطواتكِ، أحذركِ. أيّ خداع سيودي بكِ حتماً إلى الموت!"

لم يكن هناك المزيد ليقال، فتبعت جوستين سيّدها. مرا عبر صالة طويلة معتمة. فُتح باب فدخلا حجرة بَينية، حيث نهضت العجوزان اللتان طبّبتا جوستين طيلة مرضها فأدخلتاهما شقّة بديعة واسعة. كانت المركيزة على كرسيّ عال، تطرّز، فوقفت حين رأت زوجها.

قال لها المركيز "اجلسي. لا يضيرني إنصاتكِ لي جالسة. لقد وجدتُ لكِ خادمة، أخيراً. آمل أن تذكري ما حدث للأخريَين ولا تُدخلي الفتاة في المحنة نفسها".

قالت جوستين "لن يُجدي نفعاً"، وهي شغوف لمساعدة المرأة تعسة الحظ فتحاول التعمية على نواياها الحقيقية أمام المركيز. "سيدتي، عليّ أن أخبركِ في وجهكِ أنه دون جدوى. سأُبلغ المركيز عما تقولينه لي. لن أُعرّض حياتي للخطر من أجلكِ".

فردّت المركيزة، غير مدركة دوافع جوستين الحقيقية "لن أفعل ما قد يُعرّضكِ للفضيحة. فلا تقلقي، لا أحتاج منكِ فعل شيء خارج خطّ واجباتكِ".

"كلّ شيء لأجلكِ سيدتي، ليس أكثر!"

سُر المركيز فصافح جوستين هامساً في أذنها "عظيم، يا تريز! يتوقّف حظّكِ على فعل ما تقولين".

ثم أرشدها لحجرتها، لصق حجرة المركيزة. جعلها تلحظ أن الشقّة موصدة من

الداخل بأبواب قوية، والفتحات مُؤمّنة بقضبان شبكيّة مزدوجة، مما يضعف أملها في الهرب.

أضاف، وهو يقودها إلى حديقة صغيرة بمستوى الشقّة "هاهي الشرفة. لا أظنّ بكِ الحمق أن تفكّري بتسلّق جدرانها. قد تأتي زوجتي هنا لتستروح الهواء النقيّ كما تهوى، لكن يلزمكِ صحبتها. ذلك ما يخصّكِ حالياً . فوداعاً".

دخلت جوستين لرؤية سيّدتها. نظرت كلٌ للأخرى بدون كلام. مدام دي جرنان، شابة لا تتعدّى العشرين. طويلة نحيلة رشيقة. شقراء بعينين بديعتين سوداوين ملؤهما تعبيرات رقيقة. أنف دقيق، جِلد أبيض، ذقن بديع، فم صغير بأسنان براقة، محيط وجهها بيضاويّ ناعم . المركيزة، مثال لجمال المرأة. على رغم نحولها، فهي بديعة القوام مكتنزة. كما تبدو طيبة حسّاسة.
سألتها جوستين "متى نزفتِ آخر مرة، سيدتي؟"

"من ثلاثة أيام. وغداً موعدي . نعم، غداً سترين المشهد الرائع!"

سألت جوستين "ألا يوهن منكِ؟"

"يوهن مني! يا إلهي! لا زلتُ بالعشرين، ولا أظنّ المرء يحسّ بالوهن إلا قُرب السبعين. ولكلّ نهاية، فحمداً لله!"

جعلت هذه الكلمات جوستين تنقبض، فكتمت آلامها، لم تودّ أن تُبين عن مشاعرها الحقيقية نحو المركيزة.

حان عشاء المركيزة. جاءت العجوزان لتوصية جوستين أن تأخذها إلى حجرتها.

جلست المركيزة تدعو جوستين بنظرة ودّ وصداقة للجلوس والعشاء معها. بالمائدة عشرون صحنا على الأقلّ.

"طالما الطعام مخدوم فمعناه أنهم يهتمون برعايتي جيداً، كما ترين".

ردّت جوستين "نعم، أعرف أن المركيز يودّ رعايتكِ على أكمل وجه".

"آه، لكن بمعرفة دوافعه، لا تفرُق هذه المجاملات كثيراً معي".

ولأنها منهكة دائماً، فهي تأكل كثيراً. بعد العشاء ذهبت المركيزة تستروح أنفاساً في الشرفة. تسندها جوستين بيدها؛ ودون هذا العون لا تسير عشر خطوات.

أبانت عن ذراعيها إلى جوستين، الندوب تغطّيها. "ولا يتوقّف هناك. فلا جزء إلا ويريد رؤية الدم يدفُق منه". كشفت رقبتها، قدميها، كلّها ندوب. ثم خلدتا للنوم.

كان اليوم التالي موعد نزف المركيزة. وقد شرع المركيز في العملية فور خروجه من العشاء، قبل عشاء زوجته دائماً، يطلب من جوستين أن تأتي للجلوس معه إلى المائدة، لتشهد شراهته الهائلة في نظامها المعهود. يقوم أربعة خدم بتقديم وجبته المهولة.

تُقدَّم الأصناف الرئيسة أولاً؛ ثم ضلع غنم على الطريقة الإنجليزية، ثمانية أصناف لحم جانبية، خمس دورات لحوم ثقيلة، خمس للّحوم الأخفّ، رأس خنزير بريّ بين أصناف اللحوم المشويّة الثمانية؛ ثم أُبعدت لتقديم دورتَي حلويات دسمة وستة عشر صحناً من الفاكهة، ومثلّجات، ستة أنواع نبيذ، أربعة أصناف خمر، وقهوة. تناول المركيز من كلّ صحن. احتسى اثنتي عشرة زجاجة نبيذ: أربع برجاندي عند بداية الوجبة؛ أربع شمبانيا مع اللحم المشويّ؛ وتجرّع مع الحلويات توكاي وهرمتاج

وماديرا. وانتهى بزجاجتَي خمر أيلنز وعشرة فناجين قهوة.

نهض عن المائدة خطوته منتعشة، كالخارج تواً من الفراش، فخاطب جوستين "هيا نذهب لنُنزف سيدتكِ الآن. أودّ أن تبلغيني إن فعلتُها معها جيداً كما فعلتُ معكِ".

وكان شابان لم ترهما جوستين من قبل عند باب شقّة المركيزة، حيث دخلوا كلّهم. وهناك شبّان آخرون. لدى المركيز اثنا عشر منهم، يبدّلهم كلّ عام.

تلبس المركيزة رداء خفيفاً، أنزلوها على ركبتيها بمجرد دخول زوجها.

سأل "مستعدّة؟"

ردّت خانعة "لكلّ شيء، سيدي. تعرف أنه ليس لي غير طاعتكَ".

فأمر المركيز عندئذ جوستين أن تأتي بزوجته إليه. كانت المركيزة على المام تامّ بكلّ إجراء، تجتاز التمهيدات من تلقاء نفسها. وبين هذه المراسم، رفاق المركيز يستحثّونه على الإثم.

دُهشت جوستين من أن هذا الرجل الضخم بشكله المرعب كان، على رغم جُرمه، إنساناً صغيراً فعلاً. والدليل أمام عينيها: كأنه طفل بالثالثة، بأدقّ زائدة، في حجم حُمّصة تقريباً.

أخيراً، طقّت عيناه شراراً، فنخس زوجته بمبضعه؛ لكن قروحه كانت خفيفة . نمّ عنها نقطة دم أو اثنتان فحسب.

جلس ثانية فمنحها فترة استرواح، يشغل نفسه مع اثنين من رفاقه. يتلقّى المركيز

الكثير، لكن لا يمنح شيئاً بالمقابل؛ لم يكن لأكبر الجهود بالنظر إلى تُخمته وعجزه أن تُوفّق في سحبه من خَدَره. لا شيء هناك يدلّ على عنف عواطفه.

مسك زوجته ثانية، وضعها كما وضع جوستين، يداها مربوطتان بوشاحين طويلين إلى السقف. وعُهد إلى جوستين برعاية شدّ الأربطة. عاين القيود، فلم تكن مشدودة كفاية فضغطها بإحكام أكثر. جسّ أوردتها وهو ينخسها تقريباً بالوقت نفسه. بدأ الدم يدفُق، وكان سعيداً. ظلّ عشر دقائق في هذيانه، يقاوم نفسه كامرئ يفيق من الصَرَع. جيشان صراخ يُسمع من بُعد ميل وخوار بتجديف بذيء، ارتطم بكلّ ما في طريقه. فاضطرب اثنان من رفاقه. ومنهكاً، هدأ أخيراً.

ركضت جوستين فوراً جنب المركيزة، لتوقف دفق الدم، فكّتها، فأخذتها إلى كنبة. كانت موهَنة مرتخية إلى حدّ مفزِع. ودون أن يزعج المركيز نفسه، سار بتهور للخروج مع رفاقه، تاركاً جوستين تعيد كلّ شيء إلى نصابه على هواها.

أبلغت المركيزة، وهي راقدة، جوستين أنها فقدت دماً هذه المرة أكثر من العادة. لكنهم ينفقون عليها كثيراً من الرعاية والمنشّطات.

اكتشفت جوستين حالاً سرّ دخولها خدمة المركيز. فهو يعرف أن قليلاً من النساء يسعدنه كثيراً. وهكذا اكتسبت مزايا خاصة إلى ثقته.

ذات صباح طلب المركيز من جوستين المجيء إلى حجرته لنقاشها في وسائل مستجدّة للنزف. أنصتت بانتباه إليه، تستحسن براءته. كان هادئاً وتمنت أن تُليّن منه بشأن زوجته. فقالت "كيف تعامل زوجتكَ هكذا! انظر كم هي جميلة!"

"آه يا تريز، ذلك ما يثيرني! اسمعيني، فتاتي العزيزة"، وواصل، يومئ أن تجلس جنبه "مهما قلتُ عن جنسكن، فلا تغضبي؛ سأعطيكِ أسباباً معقولة. بأيّ منطق في ظنكِ

أن الزوج ملزم بإسعاد زوجته؟ وبأيّ حقّ تتوقّع الزوجة ذلك؟ هناك شخصان بقوة متعادلة، قدرة متساوية على إيذاء أحدهما الآخر، يسعدان معاً بالتبادل. طبعاً، في حالة وقّع كلاهما ميثاقاً لمنع استخدام قوتيهما لإيذاء أحدهما الآخر. لكن هذه السعادة لا توجد بين إنسانين، قويّ والآخر ضعيف. فلماذا يأمل الأخير أن يصفح عنه السابق، ولماذا ينكر القويّ على نفسه استخدام قوته مقابل لا شيء، للشفقة؟ إنه شعور منطقيّ كما قلتُ بين اثنين بقوة متعادلة. شعور أنانيّ صرف. يقع أثره بشرط ضمنيّ أن الرجل الذي يلهمني الرحمة سينال مني الشعور ذاته. لكن لو لم يكن عندي ما أخاف عليه من أجله، فشفقته عليّ عديمة الجدوى ولا يوجد سبب يستوجب التضحية بنفسي لنيل أيّ شيء منه. ألن أكون مغفّلاً لو أشفقتُ على فراخ الدجاج التي تُذبح لعشائي؟ الزوجة الآن كفرخ دجاج. كلاهما حيوانات أليفة عليها أن تُستخدم كما صمّمتها الطبيعة. وإني أسألكِ، إن كانت هذه نية الطبيعة أن يهب جنسنا السعادة لجنسكن والعكس بالعكس، أفلا تكون طبيعة عمياء قد خلقت كثيراً من الأشياء السخيفة في بِنية الجنسين! هل أخطأت جدّياً ليكون الإقصاء والكره الفطريّ المتبادل هو النتيجة! خذيني مثالاً. تريز، أستطيع وهب أيّ امرأة السعادة! والعكس بالعكس، فأيّ رجل يستطيع التمتّع بامرأة لذيذة ما دام مزوّداً بالتناسق والقوة والجَلَد اللازم لإشباعها! يُفترض أن تقولي إن الصفات الروحية قد تعوّض مواطن الضعف الجسدية. همم! ألا يصرخ أيّ عاقل حين يتعرّف إلى امرأة مع يوربيدس (هو الذي من بين آلهةٍ خلق المرأة في العالم، يتباهى بأنه أبدع أسوأ الكائنات، وأكثرها تعباً للرجل!) وهكذا ترين أن الجنسين لا يناسب أحدهما الآخر قطّ، ومن الزيف القول إن الطبيعة خلقتهما للسعادة التبادلية. خلقت فيهما الرغبة، للتناسل ليس إلا، لا ليجد كلٌ سعادته في الآخر قطعاً. فالسعادة توجد فقط بخضوع المرأة الأعمى، والجبروت المطلق والاضطهاد من قِبل سيدها. أليست هذه هي نية الطبيعة؟ الم تخلق أحدهما أدنى من الآخر في كلّ منحى! ألا تدلّ هذه الحقيقة على إرادة الطبيعة في استعمال الرجل القوة والحق الممنوحَين له! وليس لنا أن نحكم بشكاوى الضعفاء. فمثله سيكون حكماً باطلاً ضيّق الأفق ضعيفاً، لأنكِ تستعيرين أفكارهن، المفروضة عليهن من قِبل مصيرهن التعس. يجب الحكم على الفعل بقوة

الأقوياء، بالتفويض الذي تمنحهم إياه هذه القوة. لو مُدّت آثار هذه القوة إلى امرأة، فلاحظي ما ستؤول إليه: مخلوقة وضيعة، أدنى من الرجل من أيّ وجهة. فهي أقلّ براءة، أقلّ حكمة، تقاوم كلّ ما يسعد الرجل، كلّ ما يسرّه: كائن مريض نصف عمره. نكدة مناكفة متعجرفة، وموهوبة معصومة في التذمّر الدائم. طاغية لو عُهد إليها بأيّ قوة؛ دنيئة متزلّفة لو رضخَت تحت هيمنة. زائفة دوماً، شريرة خطرة. ثار نقاش جدّي بمجلس الماكون حول جرأة هذا الكائن الغريب، شبيه القرد، في الزعم بنسبه البشريّ وهل من العقل أن يُطلق عليه هذا الاسم. تبيّني الطريقة التي ينظر بها معظم الناس إلى هذا الجنس الحقير. هل أسبغ عليها الميديون، الفرس، البابليون، الإغريق، الرومان، اليهود، أدنى احترام؟ إننا نراها أينما تكون مسحوقة، تنصرف أينما تكون عن أية شؤون، تُحبس. تُعامل باختصار كالحيوانات، تُستخدم وقت الحاجة ثم تُعاد فوراً للحظيرة. أسمع الحكيم كاتو وهو يصرخ من عاصمة العالم القديم (لو خُلق الرجال دون نساء، لناطحوا الآلهة!) أسمع رقيباً إغريقياً يبدأ خطبته بهذه الكلمات (لو استطعنا، سادتي، العيش دون نساء، لأدركنا السعادة الحقّة من الآن فصاعداً). أسمع الشعراء يغرّدون في مسارح اليونان (جوبيتر! أيّ علّة ألزمتكَ بخلق النساء؟ الم تستطع وهب هذا الكيان للرجل بوسيلة أفضل وأعقل، أو باختصار، وسيلة كنت تُنقذنا بها من طاعون النساء!) وقد أحاطت هذه الأمم هذا الجنس باحتقار حتى استلزمت القوانين الحدّ من نسلهن، وكانت إحدى عقوباتهم هي إجبار المجرم على لبس زيّ امرأة، أي يلبس كأحقر وأخطر مخلوق يعرفونه. وحتى بين عصرنا أرى النساء لا يزلن يُحبسن عبر آسيا، للوفاء بعبودية نزوات الأباطرة البربريّة حيث يمزقونهن، يعذّبونهن، ويلعبون رياضة بمعاناتهن. في أمريكا أمم رحيمة بطبعها، الإسكيمو، لكنهم ينسبون للرجال كلّ فعل خيريّ، بينما يعاملون النساء بخشونة لا تُصدّق. نراهُن مُستَذَلاّت، مومسات للغرباء في مرفأ على حدود العالم، ومُستبدلات بالمال في آخر. وفي إفريقيا جدّ محتقرات، حيث يعملن كالحيوانات حمّالة الأثقال، بحرث الأرض، بذر الأرض، وارتقاب أزواجهن راكعات. وفي جُزر أخرى يُضربن، يُعذّبن من قِبل أولادهن. تريز، لا تدعي هذا يُذهلكِ. لا تعجبي من الحقّ الكونيّ الذي يملكه الأزواج بكلّ زمان على زوجاتهم. فكلّما اقترب الناس من الطبيعة أحسنوا فهم

قوانينها. ليس للزوجة علاقة مع زوجها غير الأَمَة مع سيّدها. ليس لها الحقّ في توقّع المزيد. لا ينبغي الخلط بين الحقوق والمفاسد المشينة، فقد حطّ ذلك من قدر جنسنا، بينما رفعكنّ ذات يوم. دعينا نستكشف العلّة الحقيقية لهذه المفاسد حتى نستعيد شورى العقل الحكيمة. والآن، يا تريز، هاهو سبب الاحترام الحاصل الذي يناله جنسكن، حيث يضلّل من يُطيل أمد هذا الاحترام. بين السلتيين القدامى، في تلك المنطقة وحدها من العالم، لم تُعامَل النساء مطلقاً كالعبيد، فقد اتّخذن لُباس التبشير والتنبؤ بالحظّ. تصوّروا بهنّ براعة في هذا الفن بسبب مناولتهن الحميمة مع الأرباب. ومن ثم نسبوهن إلى جماعة الكهنة وتمتّعن بكلّ ما يخصّ امتيازات الكهنة. من هذا التحيز تأسّست في فرنسا الفروسيّة، ووجدوا النساء أقرب إلى روحها، فكرّموهن. مع هذا، كأيّ شيء آخر: انقرضت المسبّبات وسلّموا بالآثار. فاختفت الفروسية لكن دام التحيز. لم يُلغ الاحترام القديم حتى بعد تلاشي مسبّبه: لم تعد الساحرات ذات تقدير بل المومسات هن المبجلات. والأسوأ، أن الناس داومت على ذبح أحدها الآخر من أجلهن. كان ذلك في زمن وضعنا فيه نهاية هذا الهراء. فلم يعد له أثر على عقول الفلاسفة. هيا نُعد النساء إلى مكانهن الحقيقيّ ونستعملهن كما تبغي الطبيعة، كما تعترف أعقل الأمم: شخوص خُلقت لأجل ملذاتنا ونزواتنا؛ شخوص لا يستأهل ضعفهن وفراغهن وجشعهن غير الازدراء! كما أن الأمم، يا تريز، لم تتمتّع بأوضح الحقوق صراحة عن نسائها فقط، بل هناك من قُدّر عليهن الموت بمجرد الولادة. كان العرب يحتفظون بعدد قليل لزوم تناسل الأنواع؛ كما اعتاد من عُرفوا باسم القُرشيّين وأد بناتهم على جبل قرب مكة. بازدرائهم هذا الجنس، ينزعون إلى قول إنهن غير أهل للتطلّع إلى نور النهار. وفي حريم الملك آخيم، كان أدنى شكّ للخيانة، أدنى عصيان لخدمة ملذات الأمير، أو لحظة نمّ فيها اشمئزازهن، فالعقاب أشدّ وسائل العذاب رعباً. على ضفاف نهر الجانج يخضعن لقتل أنفسهن فوق رماد أزواجهن، فلم يعد لهن جدوى في هذه الدنيا، لم يعد بمقدور أسيادهن التمتّع بهن. كما أنهن يُصَدن في مكان آخر كالحيوانات البريّة حيث يتمثّل الشرف في قتلهن. في مصر كان يُضحّى بهن قرباناً للآلهة. وفي فرموزا يوطَأن بالأقدام. كما اعتادت قوانين المانيا إدانة من يقتل امرأة أجنبية بغرامة صغيرة؛ ولا يدفع شيئاً لو حدث وكانت

زوجته أو امرأته. في كلّ مكان، أكرّر، هن مُستذَلات مضطهَدات مُتحَرّش بهن، أُضحيات إلى قوى الكهنوت العلوية أو من عنف أزواجهن. ولأني أعيش مصادفة بين أجلاف لا يبطلون أسخف تحيز، فلماذا أحرم نفسي من الحقوق التي وهبتني إياها الطبيعة عبر هذا الجنس! لا! لا! يا تريز، ليس عدلاً. سأُخفي سلوكي عند الضرورة، لكني سأقدّم ترضية في صمت. بسبب هذه الآراء العبثية، يُدينني القانون بالنفي في معتزلي. فأعامل زوجتي هكذا بما أراها تصلُح له وأجده متّفقاً مع شفرات الكون، مع قلبي والطبيعة!"

ضجّت جوستين بالشكوى "سيدي! جدالكَ مستحيل! ومن العجز أن أهديكَ!"

"لا تحاولي يا تريز. فالشجرة العتيقة يصعب أن تميل. في مثل سني قد يبتعد المرء خطوات في امتهان الشرّ، لكنه لا يتخذ بدرب الفضيلة خطوة واحدة. إن مبادئي وميولي هي سعادتي الوحيدة منذ الطفولة. هي الأساس المكين لكلّ من سلوكي وأفعالي. قد أتطرّف فيما أريد، لكن أعود . لا! فقد تولّد عندي رعب من نزعات البشر. أكره حضاراتهم، فضائلهم الزائفة الفاسدة، وأربابهم، بإخلاص بالغ، فلن أضحّي أبداً بأيّ من نزعاتي من أجلهم!"

*

رأت جوستين بوضوح أن وسائلها للفرار من هذا المنزل أو فكّ سراح المركيزة لن تكون بغير الخداع والمكر. طيلة العام الذي اقتربت فيه من المركيزة كانت تفتح قلبها غالباً لتجعلها تدرك كم تتوق لمساعدتها. واتّفقتا على خطط معينة. أن تكتب المركيزة إلى أمها عن أعمال المركيز الشائنة. وهي على يقين من أن أمها ستهُبّ فوراً لنجدتها. لكن المشكلة أنهما في حبس مُحكَم، بعيدتين عن مجال الرؤية!

اعتادت جوستين الحوائط ضمن الخلاء، تُعاينها من الشرفة، بارتفاع ثلاثين قدماً. فكّرت أنها قد تتخذ طريقا واضحاً إلى الغابة من هذه الحوائط. واكتشفت أنه لا سياج يسدّ طريقها، لكن لم تتأكّد. فقرّرت وزن الأمور. خطّت المركيزة رسالة توسّل

مؤثّرة إلى أمها، ألصقتها جوستين بخصرها. وبعد ظلام الدنيا، وبمعونة بضع ملاءات، تسلّقت نازلة عبر الشرفة. وهي الآن في الحديقة، فُزعت حين رأت أنها محاطة بأسوار عالية، تُخفيها كثافة من شجر، بارتفاع يزيد عن أربعين قدماً، وكلّها محميّة من أعلى. فماذا تفعل؟ ستسترعي نوراً يُضاء ويثير وجودها بالحديقة الشكوك طبعاً. كيف تهرب من ثائرة المركيز؟ سيُصفّي دمها عقاباً. كما يستحيل عليها العودة الآن، فالمركيزة سحبت الملاءات، وسينبئ عنها حتماً أيّ دقّ بالباب.

جُرّدت من إرادتها كلياً، فربضت بالعتمة ترجف خوفاً قرب شجرة. تعرف أن المركيز لا يرحم، وهي على يقين من أنه قُضي عليها الآن.

تميزت الحوائط العالية المحدقة بالحديقة عند غبش الصبح الرماديّ الغامض. أول من قابلته المركيز نفسه. كان الوقت حاراً ومُطبقاً طيلة الليل مما أثار أرقه فنهض مبكراً يتنسّم هواء الصبح النقيّ.

حدّق في جوستين وتراجع، معتقداً أنه أخطأ وما يراه مجرد شبح. فزعت جوستين ترتعد، وسقطت عند ركبتيه.

"ماذا تفعلين هنا، يا تريز؟"

فاهتز صوتها خيفة "سيدي، عاقبني!"

وقد نسيت، في ظلّ حيرتها أو رعبها، إتلاف رسالة المركيزة المخفيّة بخصرها. تملّك زمام الموقف فوراً، حدس به صحيحاً، وطلب تصفّح الرسالة. فأنكرت أية رسالة؛ لكنه بالتطلّع عن قُرب تبيّنها تلوح من جَعدة حرير على خصرها. فخطفها، وتصفّح يقرؤها عجلاً في جشع.

أمرها أن تتبعه. عادا إلى القصر من مهبط سلّم خفيّ تحت القناطر.

توقّفا بعد منعطفين أو ثلاثة، ثم فتح باب زنزانة فرماها بداخلها.

بضحكة مكبوتة قال "عاهرة غبية! حذّرتكِ، هه، الم أحذّركِ؟ ستنالين ما تستحقينه! سأصفّي حسابي معكِ غداً بعد العشاء!"

من قسر لا يُقاوم، اندفعت ثانية على ركبتيه، ترجو منه الشفقة. لكنه جرجرها من شعرها على الأرض الموجعة ثلاث مرات أو أربع حول السجن، ثم دقّ رأسها في الحائط بضراوة. وقال يكزّ على أسنانه "سأشقّ شرايينك كلّها! سأتريّث قليلاً لنيل المزيد من رعبكِ. فارتقبي، سأريكِ كيف تُجدي معكِ فضيلتكِ!"

لكن جوستين لم تعد تسمع؛ فهي ترقد بالأرض بليدة الحسّ. قضّت ليلة مفزعة، مع أكثر نوبات القلق عنفاً، ورأسها يطنّ من الالم والإنهاك.

رقدت هكذا قرابة ست وثلاثين ساعة، حتى انهدّ الباب فدخل المركيز وحده. كان قد شفَى غليله من زوجته. وفي نطاق غضبه بدت ملامحه مضخّمة، فأنفه متكتّل، وعيناه أشدّ ظلمة، أما فمه وتكشيرته فأكثر فزعاً.

قال "أظن عندكِ فكرة عما سأفعله معكِ. ستقاسين كثيراً! سيدفُق دمكِ بمسام جلدكِ كلّها! سأُنزفكِ ثلاث مرات يومياً؛ لأرى إلى متى تحتملين الحياة. أشتاق إلى هذه التجربة من زمان. فشكراً لأنكِ وهبتني الفرصة".

ودون مزيد من الإزعاج ارتمى ينخس ذراعها، وعندئذ جاءه أحد الخدم صارخاً "أسرع سيدي.. أسرع.. زوجتكَ تقضي نحبها.. وتودّ الكلام معكَ..".

فاندفع خارجاً، ونسي من ذهوله المفاجئ سكّ الباب خلفه. وعلى رغم وهنها، كان لدى جوستين حضور عقليّ كافّ لتنتهز الفرصة، فترنّحت من الباب تدلف آمنة في الحديقة. كان باب السياج مفتوحاً، فمضت عبره دون أن تلفت انتباه أحد.

قرب حلول الليل وصلت كوخاً بُعيد أربعة أميال عن القصر. أمّلت وصول بلدة جرينوبل أخيراً، موقنة من تبدّل حظّ يرتقبها، حين تخرج أول الصبح التالي.

[ترجمة: محمد عيد إبراهيم]

الْمَارْكِيزْ دُو سَادْ: مُحَاوَرَةُ كَاهِنٍ وَمُحْتَضَرٍ

الكاهن: أمّا وقد بلغت هذه الساعة المحتومة، حيث تسقط الغشاوة أخيراً، عن عيني الرجل المخدوع. لتنجلي له صورة آثامه ورذائله، القاسية –أفلا تعلن ندمك، بنيّ، على خطاياك الكثيرة، التي جرّك إليها الضعف والوهن الإنسانيان؟

المحتضر: بلى يا صديقي، أنا نادم.

الكاهن: فلتفرح إذن بلسعات الندامة هذه، في هذه الهنيهة المتبقية لك، لتنال بذلك مغفرة السماء الكاملة، ولتكن متنبّهاً، إذ فقط بالتأمل في سرّ التكفير الأقدس، ستنال ذلك من السرمدي.

المحتضر: أنا لا أفهم عنك فأنت لم تفهم عني.

الكاهن: هاه.

المحتضر: قلت لك أنا نادم.

الكاهن: سمعتك تقول ذلك.

المحتضر: نعم ولكن دون فهمٍ لما سمعت.

الكاهن: تفسيري للأمر..

المحتضر: على رسلك وسأقدّم لك تفسيري أنا. مخلوق خلقته الطبيعة بأذواق عارمة وأهواء جامحة، ووضعته على وجه البسيطة لغرضٍ واحدٍ أوحد، ألا وهو الإذعان لتلك الأهواء وإشباعها، ولمّا كانت حقيقة خلقي ليست إلاّ ضروريات تتعلّق مباشرة بالمقاصد الأساسية للطبيعة، أو إن شئت، ليست إلاّ مشتقات جوهرية تنبثق من عزمها، في نظري، لتنسجم كلّها مع نواميسها هي. فإنني نادم على جحودي الكامل لقوّتها الكليّة القدرة وإنني آسف فقط على تواضعي في استخدام قدراتي (الاجرامية في نظرك والعادية تماماً في نظري). لقد قاومتها أحياناً. أنا نادم على ذلك، مضلّلاً بتعاليمك السخيفة التي جاهدت بها، بغباء، الرغبات المغروسة فيّ بواسطة وحي أكثر ألوهة ولذا فإنني نادم. لقد اجتَزأتُ بقطف أزهار عرضت لي حين كان عليّ جني غلّةٍ وافرةٍ من الثمار، تلكم هي أسباب ندمي الحقّة فهلاّ شرفتني باعتباري غير أهل لإضمار أية أسباب أخرى.

الكاهن: انظر ويحك إلى أين تقودك أوهامك، إلى أيّ شِعبٍ تحملك سفسطاتك، إنك تعزو إلى المخلوق قدرة الخالق كلّها، وتلك الميول التعِسَة المنحرفة بك عن الجادّة، أويلي أفَلا ترى أنها ليست إلاّ نتاج الطبيعة الفاسدة التي تنسب إليها القدرة الكليّة؟

المحتضر: يبدو لي، يا صاح، وكأنّ جدلك خاطئ خطأ تفكيرك، فلتقوّم منطقك أرجوك أو فدعني أقضي نحبي بسلام. ما عساك تعني بقولك خالق وماذا تعني بالطبيعة الفاسدة؟

الكاهن: إنما الخالق هو سلطان الكون، إنه الذي صنع الأشياء، الموجودات كلّها، وهو الذي يحفظها كلّها بحقيقة قدرته الفائقة.

المحتضر: ما أروعها صورة! إذن، قل لي فيم خلق صاحبك الهائل هذا، برغم ما قدّمته، الطبيعة الفاسدة؟.

الكاهن: أيّ مجدٍ كان للناس إذن، لو لم يتركهم الربّ أحرار الإرادة وأيّة قيمة ستكون للتنعّم بذلك لو لم تُتَح لهم على الأرض فرصة فعل الخير واجتناب الشّر؟

المحتضر: وعليه فإنّ ربّك قد أفسد عمله عمداً ليبتلي أو ليمتحن خلقه – أفلم يعرف إذن، أفلم يَرْتَب إذن بالنتيجة التي ستسفر عن ذلك؟

الكاهن: لقد علم الربّ ذلك ولا ريب ولكنه، وأكررها عليك، قد شاء أن يترك للمرء نعمة الخيار.

المحتضر: لأية غاية رمى، كليّ القدرة، كما نَعتَّه لي، مادام قد عرف منذ البداية أية جهة ستتّجه الأمور ومادام بوسعه أن يجعل خلقه يختارون ما يرضيه؟

الكاهن: من القادر على سبر أغوار مقاصد الربّ الواسعة واللامتناهية، المتعلّقة بالإنسان، ومن ذا يسعه إدراك ما به قوام خطّة الكون؟

المحتضر: كلّ من يبسُط الأمور يا صاحبي، وبالأخصّ ذاك الذي يحجم عن مضاعفة العلل بغية إرباك النتائج أكثر فأكثر. ما حاجتك إلى معضلة ثانية ما دمت غير قمين بحلِّ الأولى، ثمّ مادامت الطبيعة، وحدها، قد صنعت ما تزعمه من صنع ربّك فلماذا تمضي باحثاً عن أحدٍ لتجعله مولى لها؟ لعلّ عِلّة وتفسير ما يَعْصى عليك فهمه هما من أبسط ما في العالم. كمّل معرفتك بعلوم الطبيعة وستفهم الطبيعة فهماً أفضل. اصقل عقلك وانبُذْ أحكامك المسبقة وستجد أن لا حاجة لك بعد ذلك إلى الرب.

الكاهن: يا لك من تعس، لأنت عندي كواحدٍ من أتباع سوسينوس[1] الهرطوقي، ولو كُنْتَهُ لقارعتك بما يردعك، بيد أنك ملحدٌ كما هو جلي، ومادمت أرى فؤادك مقفلاً من دون البراهين الدامغة التي لا تحصى، والتي نتلقاها في كلّ يوم نحياه، على وجود الخالق، فإنني لم يعد عندي ما أقدمه لك فشفاء الأعمى محال.

المحتضر: رويدك، أي صاحبي، واحكم بين الاثنين. إنّ من يعصب عينيه لأقلّ رؤية للنور من الآخر الذي يحاول إماطة العصابة عن عينيه، أنت تركّب، أنت تبني، أنت تحكم، أنت تبالغ وتعقّد الأمور أمّا أنا فأمحّص وأبسّط، أنت تكدّس الأخطاء واحدة فوق الأخرى، أمّا أنا فأقاوم كلّ ذلك فأيّنا الأعمى إذن؟

الكاهن: إذن أنت لا تؤمن باللّه البتّة؟

المحتضر: لا، ولسبب حقيقي واحد؛ من المستحيل على المرء أن يؤمن بما لا يدرك، فبين الإيمان والإدراك ينبغي أن تقوم وشائج مباشرة، فالإدراك إنما هو قوام حياة الإيمان، فالإيمان يزول بزوال الإدراك، وفي حال جهر البعض بإيمانهم فإنهم يغشّون. إنني أتحدّاك أنت أيّها الكاهن أن تؤمن بالربّ الذي تَكرِزُ باسمه لي، إنك ستخفق يقيناً لأنك لن يسعك إقامة الدليل عليه، وما عندك ما يجلو صورته لي، لأنك بنتيجة الأمر لا تفهمه، لأنك منذ اللحظة التي لا تفهمه فيها فإنك لن يسعك أن تعدّني بأية حجّة عقلية تصلح دليلاً على وجوده، ولأن، بالنتيجة، كلّ شيء يقع وراء حدود العقل الإنساني ودون متناوله إنما هو وهم أو عبث. وما دام على ربّك أن يكون أحد الاثنين، فسأكون مجنوناً إن آمنت به في الحالة الأولى ومعتوهاً في الثانية. أثبت لي، أي صاحبي، جمود المادّة فأقرُّ لك بالخالق، اثبت لي أن الطبيعة لا تكفي نفسها وسأدعك تتصورها مسيّرة بقوّة أعظم، وحتى تفعل ذلك فلا تتوقعن شيئاً مني. إنني

---

[1] فاوستوس سوسينوس (1529-1604) لا هوتي إيطالي انتقل إلى بولندا وهناك كتب مؤلفاته التي خرجت على الكنيسة في مسائل هامة كعقيدة التثليث ومعارضة الانضباط الكنسي واعتبار السيد المسيح إنساناً بلّغ ما أمر به الخ. أتباعه طردوا من بولندة وانتشروا فيما بعد في ألمانيا وأمريكا.

أنحني للبيّنات فقط، وإنني أدرك البيّنات بحواسي، وإيماني لا يتجاوزها قط، فإيماني يتضعضع بعد هذه النقطة. أنا أؤمن بالشمس لأنني أراها، مركّزاً بؤرياً لكلّ المواد المشتعلة في الطبيعة وحركتها الدورية تلذ لي غير أنها لا تذهلني. إنها عملية آلية لربما كانت ببساطة عمل الكهرباء التي نعجز عن فهمها، فهل آية للأمر أكثر من ذلك؟ وأنت عندما جعلت من ربّك سقفاً يُظِلُّ الموجودات فهل صارت حالي إلى أحسن؟ وهل سأمكث دون بذل جهد ولو لفهم الصانع ولتعيين صنيعته على حد سواء؟ ثمّ إنك بتقديمك هَوّلتِكَ هذه، لم تؤدّ خدمة لي بل جعلتني قلق الفكر مضطربه ولم تنورني بل إنني عوضاً عن عرفاني بجميلك أضْمِرُ حنقاً عليك، إنّ ربّك آلة صنعتها، أنت، لإرضاء أهوائك وتحكّمت بها لتساير تلك الأهواء غير أنني سأرفسها يوم تعترض طريقي وسأرى ذلك حسناً. أمّا الآن وفي هذه اللحظة وأنا آخذ بالخمود وروحي تحتاج السكينة والفلسفة فلا تزعجها بمعمّياتك وريائك الذي ينذرها ولا يقنعها، الذي يهيجها دون أن ينقلها إلى أفضل، صديقان عزيزان وبأفضل ما تضمر كلمة صداقة من معنى، كنا دائماً، أنا وروحي، ذلك ما أرادته الطبيعة. كما هو الحال فعلاً، وعلى تلك الهيئة بجلاء أبدعتها، ذلك أنّ روحي إنما هي نتيجة الترتيبات التي صاغتها فيّ لتوائم نهايتها وحاجاتها هي، إذ تملك حاجة الرذائل والفضائل متساوية، إنها عندما تشاء تحويلي للإثم تفعل، وإذا شاءت منّي صنيعاً خيّراً بعثت فيّ الرغبة للقيام به، وهكذا فلقد فعلت ما أُمِرْتُ به. ابْحثْ إنْ طلبت سبباً لتقلّب السلوك الإنساني في عملها هي لا غير، ولن تجد شيئاً آخر ينبثق من نواميسها غير إرادتها ومطالبها هي.

الكاهن: كلّ ما في العالم ضروري إذن.

المحتضر: تماماً.

الكاهن: ولكن إذا كان كلّ شيء ضرورياً فإن الكلّ منظّم.

المحتضر: ما أنا بالذي يجحد ذلك.

الكاهن: ومن ذا يسعه تنظيم الكلّ إن لم تكن يد كليّة القدرة وكليّة المعرفة؟

المحتضر: قل لي، ألا يشتعل البارود، بالضرورة، عندما تضع فيه نار؟

الكاهن: بلى.

المحتضر: وهل تجد حكمة في ذلك؟

الكاهن: لا

المحتضر: إذن، يمكن للأشياء أن تحدث بالضرورة دون أن تسيّرها حكمة عليا. ويمكن أن يسير كلّ شيء بمنطلق علّة أولى دون أن يكون ثمّة سبب أو حكمة ما في تلك العلّة الأولى.

الكاهن: إلام ترمي بذلك؟

المحتضر: للبرهنة على أن العالم بكلّ ما فيه، يمكن له أن يكون كما هو وكما تراه دونما حاجة إلى علّة حكيمة عاقلة توجهه، وأن المظاهر الطبيعية تفترض لها عللاً طبيعية، العلل الطبيعية تفي بالغرض ولا حاجة لتلفيق أحدٍ غير طبيعي كربّك الذي، كما أسلفتُ لك، هو ذاته يحتاج إلى تفسير والذي هو، في الوقت نفسه، ليس إلاّ تفسيراً للخواء، هذا ومن الجلي أن ربّك ليس إلاّ زيادة لا طائل تحتها، إنه عديم الجدوى تماماً، ومن كان عديم الجدوى ظلّ وإلى حدٍّ كبير تخيّلاً فقط، باطلاً، ولهذا معدوم الوجود، وهكذا فلكي أستنتج حقيقة أن ربّك ليس إلاّ خيالاً فإنني لا أحتاج حجة غير ذلك تديم يقيني بعديم جدواه.

الكاهن: أجدني هنا عظيم الحاجة لأحدّثك عن الدين.

المحتضر: لم لا؟ لا شيء يسلّيني كمثل هذه الإشارة إلى المدى الذي بلغته الخلق بالتعصّب والغباء وعلى الرغم أن مشاهد البلاهة المذهلة التي تواجهها قد تكون رهيبة إلاّ أنها مثيرة للاهتمام دائماً. أجبني بنزاهة الآن وحاول أن تدع أرائك الشخصية جانباً: إذا كنتُ أنا ضعيفاً إلى حدٍ أسقطُ معه ضحية نظرياتك الخرقاء المتعلقة بالوجود الخرافي للكائن الذي يجعل الدين ضرورياً، فبأي الشعائر تنصحني أن أعبده؟ أتريد لي أن أتبنّى أحلام يقظة كونفوشيوس من دون اللامعقول البراهماني، أم تريد لي أن أجثو راكعاً قدّام الأفعوان العظيم الذي تصلّي له الزنج، أأتضرّع إلى شمس أهل البيرو أم إلى ربّ الجنود الموسوي، إلى أي الفرق المحمديّة أبادر أم أي البدع المسيحية هي الأفضل بنظرك؟ تروّ في إجابتك.

الكاهن: أ ويخامرك شكّ في الأمر.

المحتضر: إنه حبّ الذات إذن.

الكاهن: لا يا بني، إنه الحب لك بقدر ما هو الحب لنفسي يجعلني أحثّك على اعتناق عقيدتي.

المحتضر: وأنا أعجب كيف يمكن لأحدنا أن يحظى بالكثير من الحب وقد تنازل للأصغاء لهذا اللغو المهين.

الكاهن: عن فطنة مَنْ تغيب المعجزات التي اجترحها فادينا الإلهي.

المحتضر: عن ذاك الذي يرى فيه شيئاً غير كونه أوضع المحتالين وأحطّ الدجالين قاطبة.

الكاهن: ربِّ أنك تسمعه ولا أسمع قصف غضبك.

المحتضر: لا يا صاحبي، كلّ شيء هادئ وساكن حولنا، ذلك أن ربّك إمّا عجزاً أو تنازلاً أو لأي سبب شئت، الكائن الذي أقبل وجوده تنازلاً وإشفاقاً عليك، أو إن أردتَ، لأكيّف نفسي مع وجهة نظرك القميئة، أقول إن ربّك هذا ما كان ليتوسّل لإقناعنا، لو كان موجوداً كما يحملك جنونك على الاعتقاد، مثل هذه الوسائل المضحكة التي يتوسلها يسوعك.

الكاهن: ماذا؟ النبوءات، المعجزات، الشهداء، أليست كلها حججاً؟

المحتضر: كيف تريدني ملتزماً بأحكام المنطق، أن أقبل برهاناً ما يحتاج بذاته إلى برهنة؟ وقبل أن تصبح النبوءة حجة، يتعيّن عليّ أن أكون كامل اليقين من أنها قد نُطِقَ بها. فتاريخ النبوءات يخبرنا بحقيقة أنها تاريخ، وفيها بالتالي، عندي، قوّة الحقائق التاريخية الأخرى والتي ثلاثة أرباعها موضع شكّ عميق، أضف إلى ما تقدم إمكانية أنها قد تكون وصلتنا عبر مؤرخين أخلاء من الموضوعية، يعني من الذين يثبتون ما يحبّذون لنا قراءته، لذا فأنا لا أعدو حقوقي إذا كنت شكّاكاً، ثمّ من تراه يشهد لي أن النبؤة ما صُنِعَتْ بعد وقوع مضمونها، وأنها ليست واحدة من خدع السياسة الماكرة كتلك التي تتنبّأ بعهد سعيد في ظلّ ملك عادل أو بصقيع في فصل الشتاء؟ أمّا عن معجزاتك فما أنا بالذي يؤخذ بترهات كهذه؛ صنيع أوغاد آمنت به الحمقى، فقبل أن أقتنع بحقيقة المعجزة، يجب أن أكون متيقناً من أن تلك الحادثة التي تسمّيها معجزة قد وقعت بما يغاير نواميس الطبيعة بإطلاق، ذلك أنّ ما هو خارج الطبيعة هو وحده، يدخل عندي، من باب المعجِزِ. ولكن من عساه يكون ذلك الذي سبر أغوار الطبيعة كلّها ليسعه تحديد النقطة الصحيحة التي ينتهي سلطانها بها، والنقطة التي تنتهك عندها حُرمتها. إثنان يلزمان لتكريس المعجزة وتوكيدها: مشعوذ وقطيع سذّج. هاك إذن أم معجزاتك كلها أنصار فرقة دينية جدد

صنعوها والعجيب، مع هذا، أنهم وجدوا دائماً بلهاء يؤمنون بها. إن صنائع يسوعك لا تتجاوز صنائع أبلونيوس التيتاني[1]. ومع هذا فإن أحداً لا تراوده فكرة تنصيبه إلهاً. وأما عن شهدائك فإنهم، يقيناً، الحجّة الأضعف بين حججك. فلكي تطلع بشهيد يلزمك الحماس من ناحية والمقاومة من ناحية أخرى. وطالما أن الجهة المقابلة تقدّم لي أسباباً بالقدر نفسه الذي يمدّني به أصحابك، فإنني لا أجد نفسي مخوّلاً بتفضيل الواحد على الآخر، بل أنا أمْيَلُ، بالأحرى، إلى اعتبار الجميع أهلاً للرثاء والشفقة. آه يا صاحبي، إذا كان الربّ الذي تبشر به قد وُجد حقّاً، أفكان بحاجة للمعجزة، للشهيد، أو لنبوءة لضمان الاعتراف به؟ ثمّ ما دمت تعلن أن القلب الإنساني من صنعه، أفَلَمْ يختره إذن ليكون مستودعاً لناموسه؟ وهذا الناموس المساوي بين الخلق كافّة، لأنه صادر عن إلهٍ هذا العضو المرهف والحسّاس، من طرف البسيطة إلى طرفها الآخر، يتشابهون في تقديم فروض الولاء للربّ الذي زوّدهم به. الجميع سيعبدونه ويخدمونه بطريقة واحدة متشابهة وسيعجزون عن إهمال هذا الرب وعن مقاومة الرغبة في عبادته، ولكن ما الذي أجده في هذا العالم عوضاً عن ذلك؟ عدد الآلهة بعدد البلدان، العبادات تختلف باختلاف الأذهان والتخيّلات، وهذا الحشد من الآراء التي يستحيل على شخصي الفاني الانتقاء من بينها. قل لي الآن، أهذا كلّه من صنع إله عادل؟ تبّاً لك أيّها الواعظ، إنك تهين ربّك حين تقدمه لي كما فعلت، دعني أجحده تماماً، ذلك أنه إذا كان موجوداً حقّاً، فإنني أقلّ إساءة له بإنكاري إيّاه مما ترتكبه أنت بتجديفك. عُد إلى عقلك أيها الواعظ، فيسوعك ليس بأفضل من محمد ومحمد ليس أفضل من موسى وهؤلاء معاً ليسوا بأفضل من كونفوشيوس الذي، على كلّ حال، قد تلفّظ ببعض عبارات حكيمة في حين تسخر منهم الفلاسفة وتؤمن بهم الغوغاء وكان على العدالة أن تشنقهم.

الكاهن: لقد فعلت ذلك بخشونة بالغة للأسف بحقّ واحد فقط بين الأربعة.

---

[1] فيلسوف ينتمي إلى المدرسة الفيثاغورية الجديدة، عاش في القرن المسيحي الأول في عهد نيرون وخلفائه وكان صاحب أعمال عجائبية باهرة. ترجم له فيلوستراتوس الاغريقي.

المحتضر: إذا كان قد نال وحده ما يستحقه فلأنه كان الأحقّ بما ناله. مثيرٌ فتِن، مشاغب، مفتر، مظلّ، مهرج أخرق وشديد الأذى. وكان يملك موهبة التهويل على الخلق وإثارة الرعاع، وهذا كلّه بلغ الحدّ الذي وجب عنده الاقتصاص منه في مملكة كالذي كانت عليه أورشليم حينذاك لقد كانوا من الحكمة بمكان بالتخلّص منه، ولعلّها الحالة الوحيدة التي تقبل فيها آرائي المتسامحة والمتساهلة إلى غاية ما بعدها غاية، بصرامة ربّة العدالة ثيمس[1]. إنني أغفر كلّ الأخطاء عدا تلك التي تعرّض للخطر الحكومة التي يحيا في ظلّها، وحدهم الملوك وجلالتهم يبعثون في نفسي الاحترام ومن لا يحبّ وطنه ولا مليكه فَلَلْموتُ أفضل له من الحياة.

الكاهن: ولكنك تؤمن لا جرم بشيء ما ينتظرنا عقب هذه الحياة، فأنت لا بدّ قد سعيت في وقت أو آخر لاختراق الحجب القائمة المحيطة بقدرنا، وإذن فأية فكرة ترضى روحك القلقة بأفضل من تلك التي تُنْذِرُ بصنوف من البلاء تحيق بمن عاش عيشة طالحة، وتَعِدُ بالثواب الأزلي لمن كانت حياته صالحة.

المحتضر: أية فكرة، يا صاحبي، أية فكرة؟ فكرة العدم لم تَهُلْني قطّ ولم أر فيها غير البساطة والعزاء، وما عدا ذلك من أفكار فإنما هي نتاج المكابرة، أما تلك فهي ابنة العقل. ثمّ أن العدم لا هو مروّع ولا هو مطلق. أوَ لَيْسَت أمام ناظريْ الأمثلة على أجيال الطبيعة المتعاقبة والمتناسخة؟ لا شيء يضمحلّ في العالم، أي صديقي، لا شيء يهلك. اليوم إنسان وغداً دودة وبعد غد ذبابة، أليس هذا استمراراً للوجود؟ ثمّ ما الذي يؤهلني لنيل ثواب على فضلٍ فيّ ولست صاحبه أو يجعلني حَرِيّاً بعقاب على جرائم لا أحمل أنا وزرها مباشرة؟ أيسعك التوفيق بين صلاح ربّك المزعوم وبين هذا النظام، وهل يعقل أن يكون قد خلقني لينعم بلذّة معاقبتي وكلّ ذلك بسبب خيار لم يدع لي حرية اختياره؟

الكاهن: بل أنت حرّ.

---

[1] ربّة العدالة والقضاء عند الإغريق.

المحتضر: نعم أنا كذلك وفقاً لأحكمك المسبقة غير أنّ العقل ينقضها، ونظرية حرية الإنسان ما كانت إلاّ لإنتاج نظرية الرحمة التي ترأف بأحلامك. أيّ إنسان على وجه الأرض يرى منصة الإعدام قائمة خلف الجريمة ثم يقترفها، إذا كان حرّاً في اجتناب ذلك؟ نحن رَهْنُ قوة لا تقاوم وليس في طاقتنا قطّ أن نعمل شيئاً غير أداء دورنا على أفضل وجه، والعَدْوِ قُدُماً في الطريق التي رُسمت لنا. ما من فضيلةٍ واحدةٍ لا تحتاج إليها. وفي الموازنة الدقيقة التي تقيمها بين الإثنتين يكمن عملها الخالص، ولكن أ مِن الممكن أن نُتّهمَ بترجيح كفّة على الأخرى مع أنها هي التي وضعتنا في الكفّة؟ لا، لسنا بمذنبين بأكثر من الزنبور الذي يفرز إبرته في بشرتك.

الكاهن: وعليه فإن أفضع الجرائم يجب أن لا يثير هلعنا.

المحتضر: أنا ما قلت ذلك. بل دع القانون يحرّم العمل الشرير، ودع العدالة تضرب المجرم بقوّة، ففي هذا حائلٌ منيعٌ. ولكن إذا ساقنا سوء الحظ لارتكاب ذلك مع ما تقدّم، فلننذر عندئذ البكاء على الحليب المسفوح. فالندم عاجز ما دام لا يُبْعِدِنا عن طريق الجريمة وهو عديم الجدوى مادام لا يُصْلِحُ الجريمة، هذا ومن السخف بمكان لطم الصدر ندماً والأسخف التهويل بعقاب في عالم آخر إن أسعدنا الحظّ وأفلتنا من عقاب هذا العالم. حاشا لي أن يُفسّر لي هذا على أنه تشجيع للجريمة، لا بل علينا تفاديها ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، ولكن على المرء أن ينأى بنفسه عنها بالعقل لا بالمخاوف الزائفة التي لا تقود إلاّ إلى خواء والتي سرعان ما تهزمها روح على شيء من القوّة. أجل، العقل أيها السيّد، وحده عقلنا عليه تحذيرنا من أن الإساءة إلى بني جنسنا لن تسعدنا أبداً، وأفئدتنا تعلمنا أن المساهمة في خلق سعادتهم إنما هي الغبطة الأعظم التي مَنَحتْناها الطبيعة على هذه الأرض. إن الأخلاق الإنسانية بأسرها تتلخّص في عبارة واحدة: أسعد الآخرين بالقدر الذي تودّه لنفسك ولا تزد في إيذائهم قط إلاّ بقدر ما ترغب بتلقي المثل منهم. هاك إذن، أي صاحبي، المبادئ التي علينا التقيد بها والتي لا يلزمك للاعتراف بها وتقديرها حقّ قدرها لا الربّ ولا الدين، بل

يلزمك قلبٌ صاف وحسب. غير أنني أحسّ الآن بقواي تضمحل، فلتذر أحكامك الجاهزة أيها الواعظ، تخلّص من إسَارِك، وكن رجلاً، كن إنساناً بلا خوف وبلا رجاء. إنْسَ آلهتك وانس دناستك أيضاً فلا شيء يُرجى منها غير تسليط رجل على رجل –إن اسم هذه الأهوال وحده قد تتسبب بضحايا تفوق عدّاً ما سبّبته الحروب والكوارث الأخرى مجتمعة. اطرح عنك فكرة العالم الآخر فثمّة لا عالم، ولكن لا تطرح لذّة أن تكون سعيداً وأن تسعد الآخرين في هذا العالم فالطبيعة لا تمنحك وسيلة غير ذلك لتضاعف وجودك ولتطيل أمده –لقد كانت الملذات المتهتّكة يا صاحبي أعزُّ مُقتناي، ولقد تعبّدت لها ماعشت، وكنت أشتهي نهاية في حضنها. إنّ أجلي يدنو وفي الحجرة المجاورة ستّ نساء أبهى من ألق الفجر، ينتظرون، فأنا كنت قد ادّخرتهنّ لهذه اللحظة. هلمّ وشاطرني المتعة، تمثّل بي وعانقهن عوضاً عن عبث المماحكات الخرافية وفي عناقهنّ حاول لبرهة أن تنسى معتقداتك المنافقة.

[**حاشية:** دقّ المحتضر الجرس فدخلت النسوة وبعد فترة وجيزة تحوّل الواعظ فصار امرؤً أفسدته الطبيعة وكلّ ذلك بسبب أنه أخفق في شرح ماهية الطبيعة الفاسدة[1]].

[ترجمة: سحبان أحمد مروة]

---

[1] لقد ترجمنا هذا النص من اللغة الإنكليزية ولذا من يحاول مطابقة حرفية هذه الترجمة بحرفية الأصل سيخطئ ضالته وسينعى علينا جهلنا العميق. لسنا هنا بصدد البكاء على ترجمة عن الأصل صغناها وضاعت في الطريق. [المترجم]

الْمَارْكِيزْ دُو سَادْ: مَوْتُ السَّيِّدَةِ ڤِيرْكَانْ

قبل[1] أقل من خمسة عشر يوما توصلت برسالة من السيدة ڤيركان تتوسل فيها إلي كي أزورها، وتبلغني أنها ستسعد كثيرا بلقائي من جديد، فسافرت إليها. لكن أية حالة وجدتها فيها يا إلهي! وأية لذة ذقت طعمها وإياها يا إلهي! فقد ألفيتها على فراش الموت لما وصلتُ، لكن من أين كان لي أن أعرف ذلك يا إلهي!

فقبل أسبوعين فقط كانت قد كتبت إلي رسالة.. قبل أسبوعين فقط حدثتني عن ملذاتها الآنية ومباهجها الآتية. ها هي إذن حقيقة مشاريع البشر الفانين. فما أن يوشكوا على الانتهاء من تشييد قصورها وولوج غمرة قطف ملذاتها غير مبالين بهذه اللحظة القدرية، ومتصرفين كما لو كانوا في الحياة خالدين، ما أن يوشكوا على ذلك حتى يأتي الموت القاسي ليقطع حبل وجودهم فيتلاشون في سحاب الخلود الغامض غير واثقين من المصير الذي ينتظرهم.

واسمح لي يا سيدي أن أتوقف لحظة عن حكي مغامراتي لأحدثك عن ذلك الفقدان وأصور لك أية رواقية مرعبة رافقت تلك المرأة إلى القبر.

لم تكن السيدة ڤيركان شابة آنذاك. فقد كانت كبرت وصارت سيدة ذات اثنين وخمسون عاما. ومع ذلك، فإنها لم تتورع عن القيام بنزهة في منتهى الجنون بالنسبة لامرأة في مثل سنها. وبعد النزهة مباشرة ارتمت في الماء كي تتبرد، فأحست بالم شديد نقلت على إثره إلى منزلها وهي في حالة يرثى لها. في اليوم الموالي ظهر التواء في صدرها، وفي السادس أخبرها الطبيب بأنه لم يبق لها في الحياة سوى أربع وعشرين ساعة تقريبا. إنها لم تبد أي فزع وارتياع أمام ذلك النبأ..

---

[1] النص مقتطف من قصة **فلورفيل وكورفال** الواردة ضمن مجموعة المؤلف **جرائم الحب**، المكتبة العامة الفرنسية، سلسلة كتاب الجيب، 1972، ص. 87-91.

كانت على علم بأنني سأصل في الليلة التي ستموت فيها – حسب قول الطبيب – فأوصت باستقبالي. ولما وصلت وجدتها داخل غرفة مفروشة بمنتهى الأناقة والجمال. كانت ممدودة فوق سرير ما يكاد الرائي ينظر إليه حتى تستيقظ شهوته وتهيج، وكانت أكاليل من الزهور الطبيعية ترفع على نحو عجيب ستائره المزدانة بدوائر ليلكية كبرى، وكانت باقات من القرنفل والياسمين والدرنيات تزين جميع أنحاء بيتها، إذ عمدت إلى انتزاع بتلاتها في حوض أزهار وغمرت بها غرفتها وغطت بها سريرها. وبمجرد ما رأتني مدت إلي يدها وقالت: — اقتربي يا فلورفيل وقبليني وأنا على سريري الزهوري.. كم صرت كبيرة وجميلة..، آه يا إلهي! كم أنجحتك الفضيلة يا ابنتي.. لقد قالوا لك إني سأموت.. وأنا أيضا على علم بذلك.. نعم، بعد ساعات قليلة سأموت، وما كنت لأصدق أنني سأحظى برؤيتك من جديد ولو لوقت قصير..

رأت عيني تمتلئان دمعا، فقالت لي: — كفى أيتها الحمقاء. لا تتصرفي مثل طفلة.. أتظنين أنني تعسة جدا؟ الم أتلذذ وأستمتع كباقي جميع نساء العالم؟ إنني ما خسرت إلا تلك الأعوام التي مضت دون أن أنعم فيها بطيب المتع والملذات، إذ ماذا ربحت عوضا عنها؟ وفي الحقيقة إني لست متحسرة إطلاقا على كون العمر لم يمتد بي إلى الشيخوخة. فلو بقيت حية بضع سنوات أخرى لصرتُ ذميمة لا أثير شهوة أي رجل، ولصرت أبعث على التقزز والاشمئزاز، وهذا ما حرصت على تجنبه في كل يوم من أيام حياتي. إن الموت يا بنيتي لا يخشاه إلا أولئك الذين يؤمنون دائما بالجحيم والجنة وهم غير متحققين من أي منهما سيفتح لهم. وقلق ذلك يدمرهم. أما أنا التي لا أتمنى أي شيء، أما أنا التي لي اليقين التام بأنني لن أكون بعد موتي أكثر شقاء ممّا كنت عليه في حياتي، فسأنام بين أحضان الطبيعة مطمئنة، بلا أسف ولا الم، ولا قلق، لقد طلبت منهم أن يجعلوني في مهدي الياسميني، وها هم شرعوا في إعداد مكاني فيه. بعد قليل سأكون بداخله يا فلورفيل، والذرات التي ستنبعث من هذا الجسد المحطم ستصير غذاء لـ..، ستنبت وتزهر سائر من أحببتهن أكثر، ثم واصلت وهي تداعب وجنتي بإكليل من تلك النبتة: — ..في السنة المقبلة، وأنت تتنسمين

هذه الورود سوف تستنشقين فيها روح صديقتك القديمة التي سأصير إياها. سوف تهب على ألياف دماغك أفكارا جميلة، وسترغمك على مزيد من التفكير في.

شقت دموعي ممرّا جديدا في خدي.. فشددت على يدي تلك المرأة الشقية، وأردت أن أغير تلك الأفكار المروعة بآراء أقل كفرا، لكنني ما كدت أعبر عن رغبتي تلك حتى أبعدتني السيدة ڤيركان بفزع وصرخت قائلة: — آه يا فلورفيل، أرجوك لا تعكري لحظاتي الأخيرة بأخطائك. دعيني أموت بسلام، فأنا لم أكره مثل هذه الأفكار طوال حياتي كي أتبناها لحظة مماتي..

—أخرستني كلماتها تلك، فماذا كان بوسع بلاغتي الهزيلة أن تفعله أمام كل ذلك الإصرار الجاد.
فقد خيبت ظن السيدة ڤيركان دون أن أفلح في صرفها عن معتقداتها. نادت فسمعت على الفور موسيقى هادئة شجية. كانت أصواتها تبدو وأنها صادرة من غرفة مجاورة.

قالت تلك المرأة الأبيقورية: — هكذا أريد أن أموت يا فلورفيل، أليس الموت هكذا أفضل بكثير من أن أموت محاطة برهبان يعكرون لحظاتي الأخيرة بالاضطراب، والتحذير، والتيئيس.. لا، إني أريد أن يعلم رهبانك أن المرء لا يحتاج إلى التشبه بهم كي يموت بسلام، أريد أن يقتنعوا بأن المرء لا يحتاج إلى دين كي يموت بسلام، وإنما يحتاج فقط إلى شيء من العقل والشجاعة.

كان الوقت يتقدّم، دخل محرر عقود كانت هي قد طلبت إحضاره، توقفت الموسيقى. أملت بعض الوصايا: أرملة منذ عدة سنوات، بدون أبناء، أوصت ببعض الهبات إلى أهلها وأصدقائها. وبعد ذلك، أخرجت صندوقا صغيرا من مكتب صغير بجانب سريرها، ثم قالت: — والآن، هاهو كل ما تبقى لدي: بعض المال وبعض الجواهر. فلنقض بقية الليلة في اللهو والمرح.

فها أنتم تسعة أفراد في غرفتي.. سأقسم هذا المال وهذه المجوهرات إلى ست حصص، وستجرون القرعة بينكم، ويأخذ كل واحد منكم النصيب الذي سيوافيه به حظه.

لم أكف عن التفكير في برودة دم تلك المرأة. بدا لي من الغريب جدا أن يكون المرء قد اقترف من كثرة الذنوب والمعاصي ما يستوجب لوم النفس، ومع ذلك يصل إلى لحظاته الأخيرة بمثل ذلك الهدوء القاتل الناتج عن الجحود والكفر. وإذا كان موت بعض الأشرار يجعل المرء يرتجف فكيف لا يمكنه ألا يحس بارتجاف أكبر أمام هذا التصلب الصامد المصرار!

ومع ذلك، فقد تأتى لها كل ما رغبت فيه. تناولت وجبة طعام خفيفة شهية، وعدة أطباق لذيذة، ثم شربت خمورا إسبانية وسوائل أخرى عدة، خاصة أن الطبيب كان قد قال لها إن ذلك لن ينفعها ولن يضرها بالنظر إلى الحالة الصحية التي كانت توجد فيها.

سحبت القرعة، فربح كل واحد منا حوالي مائة لويزية ذهبا أو فضة، وما كادت تلك اللعبة الصغيرة أن تنتهي حتى استحوذ على السيدة ڤيركان وجع كبير. سألت الطبيب بمنتهى الهدوء: — هل سأموت اللحظة؟

— أخشى أن يكون الأمر كذلك يا سيدتي.

دعتني وهي تمد يدها نحوي: — تعالي يا فلورفيل كي أودعك الوداع الأخير. فأنا أريد أن ألفظ أنفاسي الأخيرة بين أحضان الفضيلة.

— عانقتني واحتضنتني بقوة، ثم انسدت عيناها إلى الأبد.

[ترجمة: محمد أسليم]

الْمَارْكِيزْ دُو سَادْ: زَهْرَةُ الْقَسْطَلِ

زَعَمُوا[1] — لَنْ أُؤَكِّدَ ذَلِكَ، رَغْمَ أَنَّ بَعْضَ الْعُلَمَاءِ يُقْنِعُونَنَا — أَنَّ لِزَهْرَةِ الْقَسْطَلِ، إِيْجَابًا، نَفْسَ رَائِحَةِ تِلْكَ النُّطْفَةِ المتَكَاثِرَةِ الَّتِي شَاءَتِ الطَّبِيعَةُ أَنْ تَضَعَهَا فِي الرَّجُلِ مِنْ أَجْلِ تَوَالُدِ أَمْثَالِهِ.

ذَاتَ يَوْمٍ، كَانَتْ تَتَنزهُ فَتَاةٌ — تُقَارِبُ الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ فِي عُمُرِهَا، وَلَمْ تُغَادِرْ قَطُّ بَيْتَ وَالِدَيْهَا — صُحْبَةَ أُمِّهَا، وَكَانَ رَاهِبٌ مِغْنَاجٌ فِي الممْشَى المحَاطِ الْجُنُبَاتِ بِأَشْجَارِ قَسْطَلٍ تَعْبَقُ زُهُورُهَا برائِحَةٍ وِفْقَ الْإِحْسَاسِ المرِيبِ الَّذِي تَفَضَّلْنَا بِالتَّعْبِيرِ عَنْهُ بِكَامِلِ الْحُرِّيَّةِ.

— يَا إِلَهِي، أُمَّاهُ، لِتِلْكَ الرَّائِحَةِ الْفَرِيدَةِ. قَالَتِ الْبِنْتُ لِأُمِّهَا، دُونَ أَنْ تَتَنَبَّهَ لِمَصْدَرِهَا.. أَتَتَشَمَّمِينَ، أُمَّاهُ.. ذِي رَائِحَةٌ أَعْرِفُهَا.

— صَهٍ إِذَنْ، آنِسَتِي، لَا تَقُولِي أَبَدًا أُمُورًا مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ، أَرْجُوكِ.

— وَلِمَاذَا إِذَنْ، أُمَّاهُ، لَا أَرَى مِنْ ضَيرٍ فِي أَنْ أَقُولَ لَكِ إِنَّ هَذِهِ الرَّائِحَةَ لَيْسَتْ غَرِيبَةً عَلَيَّ قَطُّ، وَبِكُلِّ تَأْكِيدٍ لَيْسَتْ غَرِيبَةً عَلَيَّ.

— وَلَكِنْ، آنِسَتِي..

— وَلَكِنْ، أُمَّاهُ، أَعْرِفُهَا، قُلْتُ لَكِ؛ سَيِّدِي الرَّاهِبُ، قُلْ لِي إِذَنْ، أَرْجُوكَ، أَيُّ ضَيرٍ فِي أَنْ أُؤَكِّدَ لِأُمِّي أَنِّي أَعْرِفُ هَذِهِ الرَّائِحَةَ بِالذَّاتِ.

— آنِسَتِي، قَالَ الرَّاهِبُ وَهُوَ يُقَرِّصُ زِينَةَ إِسْكِيمِهِ وَيزمِّرُ صَوْتَهُ، مِنَ الْأَكِيدِ أَنَّ الضَّيرَ فِي حَدِّ ذَاتِهِ لَيْسَ شَيْئًا ذَا بَالٍ؛ وَلَكِنَّ الضَّيرَ فِي أَنَّنَا هُنَا تَحْتَ أَشْجَارِ الْقَسْطَلِ، وَأَنَّنَا، نَحْنُ الطَّبِيعَانِيِّينَ، نُجِيزُ فِي عِلْمِ النَّبَاتَاتِ لِزَهْرَةِ الْقَسْطَلِ أَنْ..

— أَيْ نَعَمْ، لِزَهْرَةِ الْقَسْطَلِ أَنْ؟

— أَيْ نَعَمْ، آنِسَتِي، لِزَهْرَةِ الْقَسْطَلِ رَائِحَةُ الْنَّ..

[ترجمة: رشيد وحتي]

---

[1] قصة مقتطفة من المجموعة السردية: **حَوَادِيثُ، حِكَايَاتٌ وَخُرَيْفَاتٌ**، 1788.

الْمَارْكِيزْ دُو سَادْ: رِسَالَةٌ إِلَى حَمَاتِهِ

من الْمَارْكِيزْ دُو سَادْ إلى السيدة دو مونتريبل نهاية شباط 1777: من بين جميع أساليب الانتقام والوحشية التي يمكن اختيارها، اعترفي يا سيدتي، أنكِ اخترتِ بالفعل أشدها قسوة وبشاعة. تعالي إلى باريس كي تري بعينيك حسرات والدتي الأخيرة، تعالي لا لشيء سوى لرؤيتها ومعانقتها، هذا إن كانت ما تزال على قيد الحياة، وإن لم تكن كذلك فللبكاء تعالي.. تلك هي اللحظة المناسبة التي يمكنكِ اختيارها لتجعلي مني ضحيتك مرة أخرى. يا لحسرتي، لقد سألتكِ في رسالتي الأولى عما إذا كنت سأجد فيك أمي الثانية أم الطاغية؟. فلم تتركيني في حيرتي طويلاً.. أمن أجل هذا مسحتُ لكِ دموعكِ عندما فقدتِ أباً تحبينه؟ الم تري كيف كان قلبي وقتها شاعراً بمعاناتك وكأنها معاناتي؟ تراني أتيت إلى باريس لكي أتحداك أو حاملاً بعض المكائد كي يتحتم عليكِ إبقائي بعيداً عنك!.. لقد كان هدفي الثاني بعد الاهتمام بوالدتي هو لتهدئتك فقط وللمضيّ معك قدماً — في لجوئي إليك — لكي أقبل بكل الخيارات التي تلائمك والتي قد توصين بها. وبغض النظر عن رسائلي، الم يتوجب على آمبلت — الذي لا أثق به — أن يخبرك بذلك. لكن الصديق الخائن اتحد معك من أجل خداعي وتدميري، وكلاكما نجح بهذا تماماً. لقد أخبروني أثناء جلبي إلى هنا، أن احتجازي كان ضرورياً من أجل تنظيم عملية لجوئي. فهل كان لي، بالاستناد إلى مقاييس الوفاء بالعهود، أن أخدع بهذه الأحابيل؟ هل أنجزتِ أقل ما يمكن عمله عندما استعملتِ ذات الأحابيل في سافوي؟ وهل قدم تغييبي تلك السنة أقل تحسن؟ أليس من الواضح إذن أن ما تريدينه هو تدميري الكلي وليس إصلاحي؟ أحاول أن أصدّقك لوهلة في أن الرسالة المختومة كانت أمراً لا مناص منه لتجنيبي المزيد من الأفعال الداعية للأسف، لكن هل كان واجباً أن يكون بتلك القسوة وعلى ذلك القدر من الوحشية؟ الم يكن كافياً إصدار أمر بنفيي من المملكة ليفي بالغرض؟ الم أكن سأمتثل بنفس الدقة الصارمة عندما أتيتُ طواعية ووضعتُ نفسي بين يديكِ مخضعاً نفسي لجميع متطلباتك؟ كنتُ قد كتبتُ إليكِ من بوردو أن ترسلي لي بعض النقود لكي أتمكن من السفر إلى إسبانيا، فرفضتِ إعطائي أي شيء.

لقد كان هذا دليلاً قاطعاً على أن إبعادي ليس هو ما تريدينه وإنما سجني.. وكلما استرجعتُ تلك الأحداث ازددتُ قناعة أنه لم يكن لك نيّة أخرى..لكنني مخطئ يا سيدتي،فقد أخبرني آمبلت بشيء آخر، وهو ما آمل أن يحدث. لقد أخبرني يا سيدتي أن شهادة وفاتي هي الوثيقة الأكثر ملاءمة بالنسبة لك والتي لا مفر منها للتعجيل بوضع نهاية لهذه المسألة المشؤومة. نعم يجب أن تمتلكيها يا سيدتي، وأقسم لك أنك ستمتلكينها قبل أن يمر وقت طويل.وباعتباري لن أطيل عمر رسائلي بسبب المصاعب في كتابتها، وعدم نفعها معك، فإن هذه الرسالة ستتضمن أفكاري النهائية، وكوني واثقة من ذلك. إن حالتي المروّعة هذه، كما تعلمين، لا يمكن لها بحال من الأحوال أن تمكنني من احتمال البقاء — لا جسدياً ولا عقلياً — في سجن موصد. وكما تعلمين أيضاً أنني، في سجن أكثر رفاهية من هذا، خاطرت بحياتي من أجل الهرب. وكوني محروماً هنا من خيار كهذا فلم يبقَ لي سوى أن أقوم بأمر واحد، وهو بلا شك الأمر الذي لا يمكن لأحد حرماني منه.. من أعماق ضريحها أسمع أمي العاثرة الحظ تناديني.. لكأنني أراها فاتحة لي ذراعيها مرة أخرى لأدخل ثانية في الملاذ الوحيد المتبقي لي، فإن ما يجلب لي الراحة هو أن أتبعها قريباً. وإنني أسألك معروفاً أخيراً يا سيدتي هو أن تدفنوني إلى جانبها.لكن أمراً واحداً فقط يثنيني عن ذلك، إنها نقطة ضعفي، والأمر الذي لا بد لي من الاعتراف لك به: إنني لطالما أردت رؤية أطفالي. لقد كنت أعددت نفسي لسعادة غامرة بعناقهم، وذلك بعد التقائي بك. وإن محنتي الجديدة لم تستطع أبداً أن تمحو هذه الأمنية التي يبدو أنني سأحملها معي إلى قبري.. أوصيكِ بهم يا سيدتي.. أحبّيهم ولو كرهتِ والدَهم، واهتمي بتعليمهم فذلك سيحفظهم في إهمالي لهم — إن صح ذلك — الذي نجم عن محنتي. لو كانوا يعلمون بمصيري المحزن، لرمتْ بهم قلوبهم الوديعة كأمّهم على ركبتيك، ولارتفعتْ حتماً أيديهم البريئة نحوكِ لاستجدائك. إن حبّي لهم هو ما يبعث فيّ هذه الصورة المأسوية التي لن تجدي نفعاً، ولذا فإنني سرعان ما أقوم بمحوها من مخيلتي لما تسببه لي من الألم الرهيب، في وقت كل ما أحتاجه فيه هو الثبات. وداعاً يا سيدتي..

[ترجمة: تمام تلاوي]

الْمَارْكِيزْ دُو سَادْ: رِسَالَةٌ إِلَى زَوْجَتِهِ، مِنَ السِّجْنِ

ولد الْمَارْكِيزْ دُو سَادْ نبيلاً عظيماً في عام 1740 وتوفّي بائساً فقيراً في مصحّة عقلية في عام 1814. تمتدّ حياته لتشمل العصر الذي حدثت فيه الثورة الفرنسية، وتوفّي في العام ذاته الذي تنازل فيه نابوليون عن الحكم، حين عادت الملكية إلى فرنسا من جديد. يقف دي ساد على تخوم العصور الحديثة، فهو يشرف على الماضي والحاضر، في فترة نوقشت فيها طبيعة الجوهر الإنساني بحرية، كما يحدث في عصرنا الراهن.

تعنى أعمال دو ساد بمناقشة طبيعة الحرية الجنسية، وتعتبر أعماله ذات أهمية خاصّة للنساء بسبب رفضه النظر إلى الجنسانية الأنثوية ضمن علاقتها مع الوظيفة التناسلية، رفضٌ كان مستهجناً في نهاية القرن الثامن عشر، كما هو مستهجن الآن، رغم أنّ وظيفة النساء ككائنات منجبة ما تزال قيد البحث في أيامنا هذه.

حكم على ساد بالسجن لمدّة أربعة عشر عاماً من دون محاكمة قبل أن تحرّره الثورة الفرنسية. في تلك الفترة كتب المئات من الرسائل لزوجته ولغيرها. الرسالة التي بين أيدينا شكوى تتردّد في جميع رسائله من الظلم الذي يزعم أنّه كان ضحيته، خصوصاً من حلقة أقاربه الذين كانوا يحرّضون القضاة والمحاكم على النيل منه.
[الأوان]

رسالة إلى زوجته تموز عام 1777: يقين أنّ أمّك ترتكب وضاعة أخرى من وضاعاتها عندما تستخدم القضاة لإقناعي بأنّ حريتي مرهونة بإقرار كامل من جانبي بتلك النزعات الهدامة التي نسبت إليّ والتي تعرفينها جيداً. أيّ نصر ستحقّقه بالتهديد والقسر ما يمكن أن تحصل عليه بيسر، وما أعدّه واجباً إعطاؤه عربون شكري وامتناني لها إن كان بمقدوري! (يشير دي ساد إلى أنّ والدة زوجته تسعى إلى أن تصبح القيّمة على أملاكه). إنّ هذه المرأة فائقة الذكاء، كما يقول الأب دي ساد، لا تدرك أنّ أيّ شيء يوقّعه المرء في سجنه لا يساوي قيمة الورقة التي خُطّ عليها

التوقيع. كما أنّها لا تعرف أنّ استرداد المرء لأملاكه عند إطلاق سراحه سيعود بالخذلان على أولئك الذين دُفعوا إلى الحصول عليها، وبالعار على من اتُهموا بالحصول عليها. كم كان من الأفضل أن ترضيني من دون شروط، عندها سأفعل كلّ ما تطلبه من دون إكراه. لكنّ هذا يقتضي نعمة الحساسية والإدراك وهذا ما ليس عندها. فتلك الكلمات ليست في قاموسها.

يجعلني الاحترام الذي أكنّه للمفاوض الذي تستغلّه (ربما كان المقصود هنا الأب إمبلي) أفعل ما بوسعي. لكن ربما ما سأفعله لن يكون كلّ ما تطلبه. ربما تجهلين يا عزيزتي بعض ما فعلته أنا في هذا المجال. أخيراً، أرجو أن تفهمي بأنني لن أكون ضحيّة تلك الحيل السخيفة والحمقاء والأكاذيب والخدع التي يستخدمونها ضدّي. كما لن أكون ضحيةً لك ولأقربائك والحلفاء الفاتنين لهم.

كتبت رسالتين كي أسهّل البحث الأكاديميّ للممتحنين والمختصرين والمعلّقين ومحرّري أسلوبي (يقصد رقباء السجن). فبهذه الوسيلة سيتمكّنون من الانتقاء والاختيار.

لاشيء يمكن أن يعبر عن معاناتي وآلامي عندما أدركت أنني لن أخرج من هنا في نهاية حزيران. لقد طال الأمر! يا الله، ما الذي سأصبح عليه؟ أستدفنني هنا وحشيتهم تلك إلى الأبد؟ اصغي إلي للمرّة الأخيرة. إن امتنعت عن الاستجابة لي والتعاطف معي أقسم بأنني سأنساك ولن أتوجّه إليك بمزيد من كلام. كما أقسم بأنّني سأتركك إلى الأبد عندما أغادر هذا المكان. ثمّة رقم 3 جديد كتبته في الرسالة الثالثة بحبر سرّي ويؤرّخ للثالث والعشرين من أيار. أيعني هذا لك شيئاً، أجيبي بنعم أو بلا؟ (هذا مثال قديم على تفكّر دو ساد في الأحداث أو الرسائل وقراءته لها، سواء كانت في الحاضر أو في الماضي ساعياً من خلال ذلك إلى اكتشاف دلائل أو "إشارات" كما يدعوها، يعتقد بأنها ستشي له بتاريخ إطلاق سراحه). إن كان ذلك يعني أيّ شيء، اخبريني في نهاية رسالتك بالحبر السرّيّ بأنني شخص ذكيّ، وإن كان لا يعني أيّ شيء، انعتيني بالأحمق.

ثمّة طريقة خفيّة مناسبة وتستطيعين من خلالها أن تساعديني بشأن ما أطلبه. ويقين لن يعرّضك هذا للشبهة أبداً. تأكّدي إن أخبرتني، لن أنطق بكلمة ولن أبدي انزعاجي بأيّ حال من الأحوال.

وداعاً! امنحيني السكينة ولبي ما طلبت. فأنا بأمسّ الحاجة إليه بعد كلّ ما قاسيته هنا في هذه الأيام. ولا تحاولي إخباري بأنّك لم تستلمي هذه الرسالة. فيقين أنّك تلقيت جميع الرسائل التي بعثت بها إليك. عندما تنكرين أنك استلمتها، فلأنّك لا تريدين أن تستجيبي لما تحتويه. أكتب هذا على نحو آليّ بالأبيض والأسود وأنت تدركين ما أرمي إليه.

أي حبيبتي إن استجبت، سأكون ممتناً لك مدى الحياة.

[*alawan.org*]

الْمَارْكِيزْ دُو سَادْ: الْوَصِيَّةُ

أ سْنِدُ تَنْفِيذَ الْبُنُودِ المشَارِ إِلَيْهَا أَسْفَلُهُ لِتَقْوَى بُنُوَّتِي، رَاغِبًا فِي أَنْ يَتَصَرَّفَ مَعَهُمْ أَقْرِبَاؤُهُمْ كَمَا كَانُوا سَيَفْعَلُونَ مِثْلِي.

أَوَّلًا: أُعْرِبُ لِلْآنِسَةِ مَارِي كُونْسْطُنْس رُنِيلْ [Marie-Constance Renelle]، — زَوْجَةِ السَّيِّدِ بَالْطَازَارْ كِينِي [Balthasar Quesnet]، الَّذِي يُعْتَقَدُ أَنَّهُ مَاتَ — بِقَدْرِ مَا تَسْمَحُ لِي بِهِ قُدُرَاتِي الضَّعِيفَةُ، عَنْ بَالِغِ امْتِنَانِي لِلرِّعَايَةِ وَالصَّدَاقَةِ الصَّادِقَةِ الَّتَيْنِ غَمَرَتْنِي بِهِمَا مُنْذُ الْـ 25 أُغُسْطُسْ 1790 حَتَّى يَوْمَ وَفَاتِي، وَهِي مَشَاعِرُ عَبرتْ عَنْهَا لَيْسَ فَقَطْ برقَّةٍ وَنُكْرَانٍ لِذَاتِهَا، بَلْ أَيْضًا بِأَشْجَعِ عَزِيمَةٍ، بِمَا أَنَّهَا تَحتَ نِظَامِ الْإِرْهَابِ أَنْجَتْنِي مِنَ المقْصلَةِ الثَّوْرِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ مُعَلَّقَةً، كَأَمْرٍ فِي غَايَةِ التَّأْكِيدِ، فَوْقَ رَأْسِي، كَمَا يَعْرِفُ الْجَمِيعُ ذَلِكَ. أَهَبُ إِذَنْ وُأُوْصِي، لِلْأَسْبَابِ المفَصَّلَةِ أَعْلَاهُ، لِلسَّيِّدَةِ المدْعُوَّةِ مَارِي كُونْسْطُنْسْ رُنِيلْ، حَرَمِ كِينِي، بِمَبْلَغٍ نَقْدِيٍّ زُهَاؤُهُ 24000 جُنَيْهًا مَسْكُوكًا فِي مَدِينَةِ تُورْ [Tours] وَمُتَدَاوَلًا فِي فَرَنْسَا خِلَالَ فَترةِ وَفَاتِي، مُبْتَغِيًا وَقَاصِدًا أَنْ يُجْتزأَ هَذَا الْقَدْرُ مِنْ أَكْثَرِ الممْتَلَكَاتِ الَّتِي أَتركُهَا تَحَرُّرًا وَبُعْدًا عَنِ النزاعَاتِ الْعَائِلِيَّةِ، مُحَمِّلًا أَبْنَائِي مَسْؤُولِيَّةَ وَضْعِهِ، فِي أَجَلِ شَهْرٍ بَعْدَ يَوْمِ وَفَاتِي، لَدَى السَّيِّدِ فِينُو [Finot]، الموَثِّقِ الْعَدْلِيِّ بِشَارُنْطُنْ-سَانْ مُورِيسْ [Cahrenton-Saint-Maurice]، الَّذِي أُعَيِّنُهُ، إِثْرَ هَذَا، مُنَفِّذًا لِوَصِيَّتِي، كَيْ يُسْتَعْمَلَ الْقَدْرُ الماليُّ المشَارُ إِلَيْهِ، عَنْ طَرِيقِهِ، بَالطَّرِيقَةِ الْأَسْلَمِ وَالْأَنْضَجِ مِنْ طَرَفِ السَّيِّدَةِ كِينِي بِاعْتِبَارِهِ مَوْرِدًا كَافِيًا لِمَأْكَلِهَا وَرِعَايَتِهَا، مَوْرِدًا يُؤَدَّى لَهَا بِشَكْلٍ مَضْبُوطٍ وَعَلى حِصَصٍ دَوْرِيَّةٍ، كُلَّ ثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ، دُونَ الْقُدْرَةِ عَلَى إِسْقَاطِهِ أَوْ حَجْبِهِ عَنْهَا مِنْ طَرَفِ أَيِّ كَانَ. أَبْتَغِي أَيْضًا أَنْ يُحَوَّلَ مَبْلَغُ هَذَا الرِّيعِ لِشَارْلْ كِينِي [Charles Quesnet]، ابْنِ المدْعُوَّةِ السَّيِّدَةِ كِينِي، الَّذِي سَيَصِير وِفْقَ نَفْسِ الشُّرُوطِ حَائِزًا لِلْمَجْمُوعِ، فَقَطْ فِي حَالَةِ وَفَاةِ أُمِّهِ المحْترمَةِ.

تَبَعًا لِهَذِهِ الْإِرَادَةِ الَّتِي أُعَبر عَنْهَا هَا هُنَا بِخُصُوصِ الميراثِ الَّذِي أَتركُهُ لِلسَّيِّدَةِ كِينِي، فِي حَالَةٍ غَير مُفْترضَةٍ سَيُحَاوِلُ فِيهَا أَبْنَائِي حَجْبَهُ أَوِ التراجُعَ عَنْهُ، أَرْجُوهُمْ أَنْ يَتَذَكَّرُوا أَنَّ المدْعُوَّةَ السَّيِّدَةَ كِينِي كَانَتْ قَدْ وُعِدَتْ آنِفًا بِمَبْلَغٍ مُسَاوٍ تَقْرِيبًا عِرْفَانًا بِعِنَايَتِهَا بِوَالِدِهِمْ، وَأَنَّ تَصَرُّفِي هَذَا لَيْسَ إِلَّا تطَابُقًا مَعَ نَوَايَاهُمُ الْأُوْلَى وَاسْتِبَاقًا لَهَا، أَقُولُ هَذَا دُونَ أَنْ تَتَسَرَّبَ إِلَى ذَاتِي أَيَّةُ شُكُوكٍ قَدْ تزعِجُهَا وَلَوْ لِلَحْظَةٍ، خُصُوصًا عِنْدَمَا أُفكِّرُ فِي فَضَائِلِ الْبُنُوَّةِ الَّتِي لَمْ تَكُفَّ أَبَدًا عَنْ طَبْعِهِمْ وَتَمْتِيعِهِمْ بِكُلِّ مَشَاعِرِي الْأَبَوِيَّةِ.

ثَانِيًّا: أَهَبُ لِلْمَدْعُوَّةِ السَّيِّدَةِ كِينِي وَأُوْصِي لَهَا، أَيْضًا، بِكُلِّ أَثَاثِي، مَلَابِسِي، مَنْسُوجَاتِي، كُتُبِي أَوْ أَوْرَاقِي الَّتِي سَتُوْجَدُ عِنْدِي خِلَالَ وَفَاتِي، مَا خَلَا أَوْرَاقَ وَالِدِي وَالمشَارُ إِلَيْهَا كَذَلِكَ بِبِطَاقَاتٍ مُلْصَقَةٍ فَوْقَ الرُّزَمِ، وَهِيَ أَوْرَاقٌ سَتُسَلَّمُ لِأَبْنَائِي.

ثَالِثًا: مِنْ نَوَايَايَ وَإِرَادَاتِي الْأَخِيرةِ أَنْ لَا يَحْرِمَ هَذَا الْإِرْثُ السَّيِّدَةَ المدْعُوَّةَ مَارِي كُونْسطُنْس رُنيلْ، حَرَمَ كِينِي، أَبَدًا مِنْ كُلِّ الْحُقُوقِ، المطَالِبِ وَالنَّفَقَاتِ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ تُطَالِبَ بِهَا بِشَكْلٍ مُطَّرِدٍ فِي عَلَاقَةٍ مَعَ تركَتِي، وَبِالطَّرِيقَةِ المتَاحَةِ.

رَابِعًا: أَهَبُ وَأُوْصِي لِلسَّيِّدِ فِينُو، مُنَفِّذِ وَصِيَّتِي، خَاتَمًا بِقِيمَةِ 1200 جُنَيْهًا مُقَابِلَ الْأَتْعَابِ الَّتِي يُكَلِّفُهَا إِيَّاهُ تَنْفِيذُ هَذِهِ الْوَصِيَّةُ.

خَامِسًا: أَمْنَعُ مُطْلَقًا أَنْ يُشَرَّحَ جَسَدِي كَيْفَمَا كَانَتِ الذَّرِيعَةُ لِذَلِكَ. أَطْلُبُ بِبَالِغِ الْإِلْحَاحِ أَنْ يُتركَ فِي الْغُرْفَةِ حَيْثُ سَأَمُوتُ 48 سَاعَةً، مَوْضُوعًا فِي تَابُوتٍ خَشَبٍ لَنْ يُسَمَّرَ إِلَّا بَعْدَ مُضِيِّ الـ 48 سَاعَةً الملْزِمَةِ أَعْلَاهُ، وَالَّتِي بَعْدَ مُضِيِّهَا يُمْكِنُ تَسْمِير التَّابُوتِ المذْكُورِ آنِفًا. فِي هَذِهِ الْفَترةِ سَيُبْعَثُ سَاعٍ إِلَى السَّيِّدِ لُونُوْرْمُنْ [Le Normand]، تَاجِرِ الْأَخْشَابِ الْكَائِنِ بِشَارِعِ المسَاوَاةِ، رَقْمِ 101 بِفِرْسَايْ [Versailles]، طَالِبًا مِنْهُ الْقُدُومَ شَخْصِيًّا مَتْبُوعًا بِعَرَبَةٍ، لِحَمْلِ جُثْمَانِي مِنْ أَجْلِ نَقْلِهِ مَخْفُورًا وَفِي الْعَرَبَةِ المذْكُورَةِ نَحْوَ غُوَيْبَةِ أَرْضِي فِي مَالميزونْ [Malmaison]، حَيْثُ أُرِيدُ أَنْ أُطْمَرَ دُونَ طُقُوسٍ، فِي أَوَّلِ أَجَمَةٍ فِي خَمِيلَةٍ تُوجَدُ يَمِينَ الْغُوَيْبَةِ، وَأَنْتَ تَلِجُ المكَانَ مِنْ جِهَةِ

الْقَصْرِ الْقَدِيمِ عَبر الممْشَى المشَجَّرِ الَّذِي يَشْطُرُهُ نِصْفَيْنِ. سَيُحْفَرُ قَبري فِي تِلْكَ الْأَجَمَةِ مِنْ طَرَفِ الْقَيِّمِ عَلَى المزْرَعَةِ، تَحْتَ إِمْرَةِ السَّيِّدِ لُونُورْمُنْ الَّذِي لَنْ يُغَادِرَ جُثْمَانِي حَتَّى يَطْرَحَهُ فِي الْقَبر المذْكُورِ. يُمْكِنُهُ أَنْ يَصْطَحِبَ مَعَهُ فِي هَذِهِ المرَاسِيمِ، إِنْ شَاءَ، مَنْ يريدُ مِنْ بَيْنِ أَهْلِي وَأَصْحَابِي مَنْحِي هَذَا الْعُرْبُونَ الْأَخِير عَلَى تَعَلُّقِهِمْ بِي، وَلَكِنْ عَلَى أَنْ يَجْرِي ذَلِكَ دُونمَا طُقُوسٍ مَأْتَمِيَّةٍ. عِنْدَ إِهَالَةِ التراب عَلَى الْحُفْرَةِ، سَتُنْثَرُ فَوْقَهَا ثِمَارُ الْبَلُّوطِ، وَذَلِكَ لِتَكُونَ أَرْضِيَّةُ الْأَجَمَةِ مَفْرُوشَةً مِنْ جَدِيدٍ، وَلِكَيْ تُعَمَّرَ بِغِطَاءٍ نَبَاتِيٍّ كَمَا كَانَتْ مِنْ قَبْلُ. بِالتَّالِي سَتَخْتَفِي آثَارُ قَبري عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، مِثْلَمَا أَزْهُو بِأَنَّ ذِكْرَايَ سَتَنْمَحِي مِنْ نُفُوسِ الْبَشَرِ، مَا خَلَا تِلْكَ الْقِلَّةَ الْقَلِيلَةَ الَّتِي شَاءَتْ أَنْ تُحِبَّنِي حَتَّى اللَّحْظَةِ الْأَخِيرةِ وَالَّتِي آخُذُ مِنْهَا نَحْوَ قَبري ذِكْرَيَاتٍ بَالِغَةَ الرِّقَّةِ.

حُرِّرَ فِي شارنطُنْ-سَانْ مُورِيسْ، في كامل وعيي وسلامتي الصحية، فِي يَوْمِهِ الـ 30 من يناير 1806.

تَوْقِيعُ: دُونَاسْيَانْ أَلْفُونْسْ فْرُنْسْوَا سَادْ.

تَذْيِيلَاتٌ مِنَ الْمُتَرْجِمِ عَلَى الْوَصِيَّةِ

هذه وصية لم تُنَفَّذْ منها أسرةُ ساد شيئًا. كل التأكيدات والتكرارات فيها، والتي تبلغ في مَوَاضِعَ منها حدَّ الركاكة، ركاكة مقصودة في أسلوبية كاتب يمتلك زمامَ أدواته، ركاكة تعبِّرُ عن هواجس ساد ومخاوفه من عدم تنفيذ رغباته، رُهَابَهُ تجاه الموت، مَخَافَتَهُ أَنْ يُدْفَنَ حيًّا. كأنه كان مزعجا لأسرته وباقي أشكال السلطة حيًّا كما مَيِّتًا. دُفِنَ في مقبرة شارنطُنْ، كي يبقى الجسد أسيرًا بعد العجز عن أسر الروح. ونُبِشَ قبره، كما أجريت لجثته تشريحات عديدة وخضعت جمجمته لاختبارات طبية، لتختفِيَ فيما بعد بشكل مفاجئ، دون أن يُعْثَرَ عليها إلى اليوم.

*

تتميز هذه الوصية بقدرة تصويرية ودقة في تحديد الأمكنة كما في نصوص ساد التخييلية، وكأن الكاتب يقوم بإخراج مسرحي لموكب جنازته وطقوس دفنه بشكلٍ قَبْلِيٍّ، مثلما كان يدير شخصياته في نصوصه السردية والممثلين في المسرح الذي كان يُسَيِّرُهُ في سجنه.

*

لاختيار شجر وثمار البلوط رمزية أيروسية: الشكل الأشبه بالقضيب والجناس اللفظي في اللغة الفرنسية [gland]، إذ أن للكلمة مَعْنَيَيْنِ: قَدْ تَكُونُ ثَمْرَةَ شجر البلوط، وقد تعني أيضا: الْحَشَفَةَ.

*

العودة إلى العدَمِ من معالم مادية ساد الإلحادية التي عَبَّرَ عنها في أكثر من موقف وموضع في رواياته، أبرزها المقطع التالي: "ذاَتَ يَوْمٍ، وَأَناَ أَنْظُرُ إِلَى إِتْناَ **Etna**، الَّذِي كاَنَ نَهْدُهُ يَتَقَيَّأُ حُمَماً، وَدَدْتُ لَوْ كُنْتُ هَذاَ الْبُرْكَانَ الشَّهِيرَ. آهِ يَا فَاهَ الْجَحِيمِ ــــ صَرَخْتُ وَأَنَا أَرْنُو إِلَيْهْ ــــ لَوِ اسْتَطَعْتُ مِثْلَكَ ابْتِلَاعَ الْمُدُنِ الَّتِي تُحِيطُ بِي كُلَّهَا، كَمْ مِنَ الدُّمُوعِ سَأُهْرِقُ." [**جُوسْتِينْ الْجَدِيدَةُ**.]. فكرة العودة للعدم هذه تعود من جديد في آخر الوصية، عبر رغبة أخيرة في انمحاء كل أثر جسدي أو معنوي لساد على الأرض وفي ذاكرة التاريخ مباشرة بعد دفنه.

*

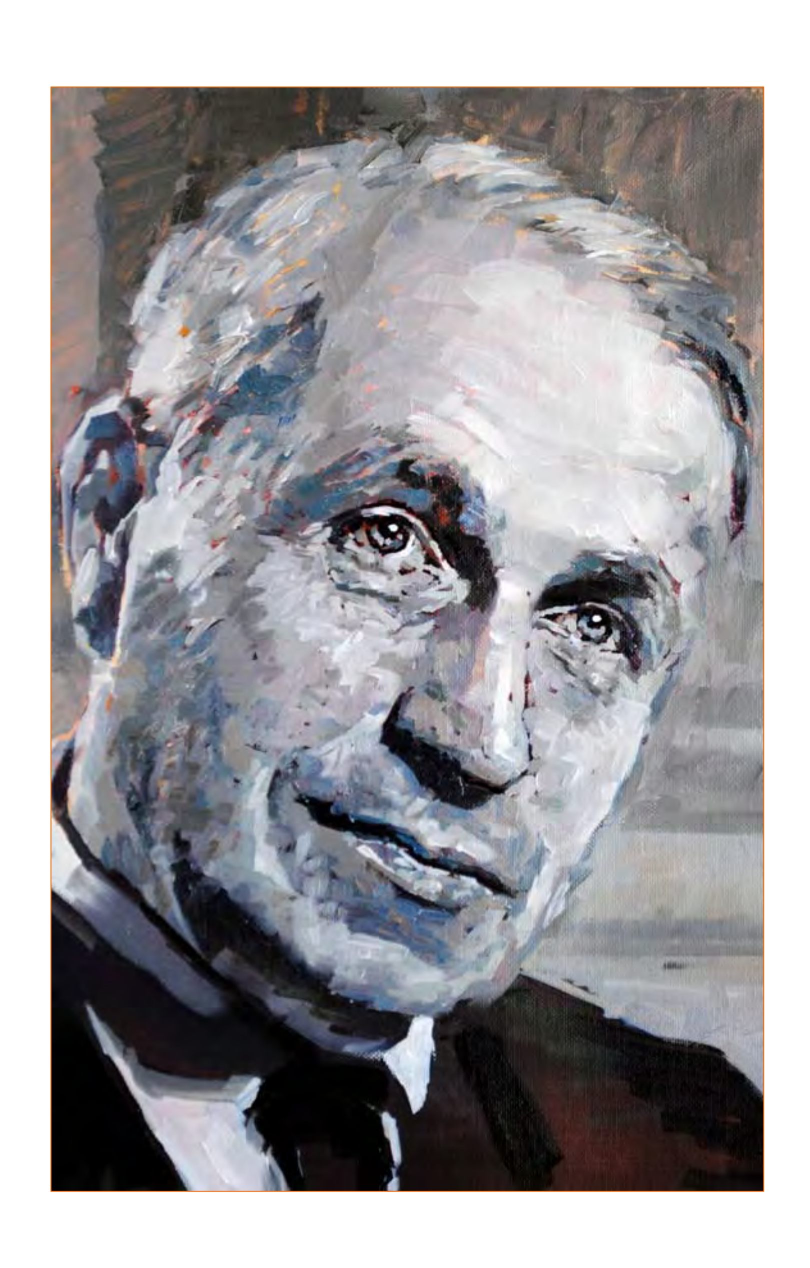
مَشَتْ ذِكْرَى ساد، التي أرادها أنْ تَنْمَحِي مِنْ نُفُوسِ الْبَشَرِ، عكسَ ما يريدُ تماما: لم تستطع الرقابة، ولا طول فترات اعتقاله، ولا نَبْذُهُ من طرف الوسطين الأدبي والسياسي أن تسلبَهُ شيئا من جدارته كتابةً وفكرا. على العكس، ساڈ يزداد زَخَمًا مع مرور الوقت.

*

لتخليد الذكرى الـ 145 لوفاة ساد، اقتَرَحَ تنفيذَ الوصية — التي أمضى عشر سنين وهو يفكر فيها — الفنانُ الكندي جَانْ بُنْوَا [Jean Benoît]، الذي عرَضَ الفكرة على أَنْدْرِي بْرُطُونْ [André Breton]، فَحَبَّذَهَا الأخير. أقيمت الطقوس في بيت الشاعرة المصرية جُويْسْ مَنْصُورْ [Joyce Mansour] وفقَ فُرْجَةٍ مسرحية تحتَ عنوان: **تَنْفِيذُ وَصِيَّةِ الْمَارْكِيزْ دُو سَادْ** [*L'exécution du testament du marquis de Sade*]، كانَت افتتاحا لِـ **المعرض العالمي للسريالية احتفاء بأَيْرُوس** [*Exposition internationale du surréalisme dédiée à Éros*]. انطلقتْ الفكرة من اعتبار السرياليين لحركتهم وريثا شرعيا للماركيز الإلهي، وفقَ تسمية پُولْ إِلْوَارْ [Paul Eluard] لَهُ. كان حفل الوصية مزيجاً من طقوسٍ كاثوليكية هرطوقية وطقوس وثنية، أنهاها بُنْوَا بِأَنْ طَبَعَ عَلَى قَلْبِهِ بالحديد الحامي حروف اسم ساد.

[تَرجمةُ وتَذْيِيل: رشيد وحتي.]

• المحور II: جُورْجْ بَاطَايْ •



مَدْخَل: مُتَصَوِّفٌ وَثَنِيٌّ يُفَكِّرُ كَمَا تَتَجَرَّدُ فَتَاةٌ مِنْ فُسْتَانِهَا

ثـ مَّةَ أحياءٌ يرفضون أن يموتوا، يقوم فكرهم بموجات ارتدادية لا تَسْكُنُ للأبد. باطاي واحد منهم، إن لم يكن أبرزهم، بالعودة حاليا، وبقوة إلى فكره النقدي، الشرس، الصدامي في حواره مع مجايليه وسالفيه: هيگل [Hegel]، نيتشه [Nietzsche]، ساد [Sade]، أندري بروطون [Breton] شخصا والحركة السريالية جمعا، روني شار [Char]سرياليا ومتوحدا.

*

كان باطاي متعدد التخصصات، ولو أردنا أن نضعه ضمن خانة معينة لَفُرِضَ علينا توسيع دائرة الفرجار عن آخرها لنصنفه كأهم إنَاسِي [أَنْثْرُوپُولوجي] في القرن الـ 20، على اعتبار الإناسة دراسة للإنسان في جميع مظاهره ونشاطاته عبر سائر العصور.

*

خرجت من معطف باطاي موجات فكرية عديدة وأسماء كان هو بالذات شرطا تاريخيا ومعرفيا لوجودها: ميشال فوكو: مقدم وناشر أعماله الكاملة، كلود ليڤي شتراوس [Claude Lévi Strauss]، رولان بارث، جاك ديريدا [Derrida]، فيليب صولرس [Sollers]، جوليا كريستيڤا [Kristeva] وكامل المجموعة المتحلقة حول مجلة *Tel quel*، التي أفردت له أعدادا خاصة؛ جان لوك نانسي [Jean-Luc Nancy]، فيليب لاكو لابارث [Philippe Lacoue-Labarthes].

*

عربيا، الآن، حان الوقت لضخ دماء الرجل في فكرنا المترهل عبر تقديم نصوص مترجمة له، ودراسات عنه تعرض أفكاره. وسيكون التناول تفصيليا لتقليب معالم فكر الرجل في جميع جوانبه: علم اجتماع، أدب، نقد فني، معجميات، علم جمال، سياسة، ..

*

ما في هذا العدد لا يشكل إلا بداية طريق تبدو معالمها في الأفق ممزِّقَةً الفستان ومعانقةً لازورد السماء.

[انتهاكات]

جُورْجْ بَاطَايْ: إِضَاءَاتٌ

Ce qui m'oblige d'écrire, j'imagine, est la crainte de devenir fou.

مَا يرغِمُنِي عَلَى الْكِتَابَةِ، كَمَا يَتَهَيَّأُ لِي، هُوَ الْخَوْفُ مِنْ أَنْ أَصِير مَجْنُونًا.

La littérature, je l'ai, lentement, voulu montrer, c'est l'enfance enfin retrouvée.

اَلْأَدَبُ، أَرَدْتُ، بِتُؤدَةٍ، أَنْ أُشِير إِلَى ذَلِكَ، هُوَ الطُّفُولَةُ المسْتَعَادَةُ أَخِيرا.

Une conscience sans scandale est une conscience aliénée.

اَلْوَعْيُ دُونَ فَضِيحَةٍ وَعْيٌ مُسْتَلَبٌ.

En un sens le cadavre est la plus parfaite illustration de l'esprit.

بِمَعْنًى مِنَ المعَانِي، الْجُثَّةُ هِيَ التَّعْبِير الأَمْثَلُ عَنِ الرُّوحِ.

La vraie poésie est en dehors des lois.

يَتَحَقَّقُ الشِّعْرُ الْحَقِيقِيُّ خَارِجَ الْقَوَانِينِ.

La littérature est l'essentiel, ou n'est rien.

يَكُونُ الْأَدَبُ جَوْهَرِيًّا، أَوْ لَا يَكُونُ.

La volupté excessive agrandit le cœur, le dévaste et l'oblige à la dureté.

تُنَمِّي اَلشَّهْوَةُ المسْرِفَةُ الْقَلْبَ، تَجْتَاحُهُ وَتُجْبرهُ عَلَى الْقَسَاوَةِ.

J'enseigne l'art de tourner l'angoisse en délice.

أُدَرِّسُ فَنَّ تَحْوِيلِ الْفَزَعِ إِلَى مَلَذَّةٍ.

L'espoir est le désir mais ouvert à la peur.

اَلْأَمَلُ هُوَ الرَّغْبَةُ، لَكِنْ مَفْتُوحَةً عَلَى الْخَوْفِ.

L'acte sexuel est dans le temps ce que le tigre est dans l'espace.

تُمَثِّلُ المواقَعَةُ الْجِنْسِيَّةُ فِي الزَّمَانِ مَا يُمَثِّلُهُ النَّمِرُ فِي المكَانِ.

Il n'est pas de beauté sans fêlure.

مَا مِنْ جَمَالٍ لَا شَرْخَ فِيهِ.

La caresse de l'œil sur la peau est d'une excessive douceur.

لِمُدَاعَبَةِ الْعَيْنِ الْإِهَابَ رِقَّةٌ مُسْرِفَةٌ.

La conscience sans identité est comme un corps sans tête.

اَلْوَعْيُ بِلَا هُوِيَّةٍ كَجَسَدٍ بِلَا رَأْسٍ.

Je pense comme une fille enlève sa robe.

أُفَكِّرُ كَمَا تَتَجَرَّدُ فَتَاةٌ مِنْ فُسْتَانِهَا.

Personne, décidément, ne voit de face: le soleil, l'œil humain le fuit.

لَا أَحَدَ، بِالتَّأْكِيدِ، يرى وَجْهًا لِوَجْهٍ: فَالشَّمْسُ، تَهْرُبُ مِنْهَا عَيْنُ الْبَشَرِ.

La poésie, le sacrifice où les mots sont victimes.

اَلْقَصِيدَةُ: أُضْحِيَةٌ ضَحَايَاهَا الْكَلِمَاتُ.

[انتخاب وترجمة: ر.و.]

جُورْجْ بَاتَايْ: الْحِصَانُ الْأَكَادِيمِيُّ

في الظاهر، لا شيء في تاريخ عالم الحيوان، ذلك التعاقب البسيط لتحوّلات ملتبسة، يذكّر بالحتميّات المميزة للتاريخ الإنسانيّ،وتحوّلات الفلسفة والعلوم والشروط الاقتصاديّة، وبالثورات السياسيّة أو الدينيّة، وعهود العنف والعته.. فضلا عن ذلك فهذه التغيرات التاريخيّة منبثقة في المقام الأوّل عن الحريّة التي مُنحها الإنسان بصفة اعتباطيّة، فكان الحيوان الوحيد الذي قُبل منه القيام بانحرافات في السلوك أو التفكير.

وممّا لا جدال فيه أنّ هذه الحريّة التي يعتقد الإنسان أنّه التعبير الوحيد عنها هي كذلك حقيقة حيوان ما، يعبر شكله المميز عن اختيار عفويّ جاء بين اختيارات لا حصر لها. وليس من المهمّ في الحقيقة أن يكون هذا الشكل قد تكرّر بصفة متطابقة لدى مجانسين له: فالتكاثر المدهش للحصان أو النمر لا يلغي في شيء حريّة القرار الغامض الذي يمكننا أن نظفر فيه بالمبدأ الذي يبيّن حقيقة هذين الكائنين. الأمر الوحيد الذي يتوجّب إقامته سعيا إلى إقصاء مفهوم اعتباطي ما، هو اتّخاذ مقياس مشترك بين مختلف الأشكال الحيوانيّة والحتميّات المتناقضة التي تقلب بشكل دوريّ وجود البشر.

توجد في علاقة بالتطوّر الإنسانيّ تناوباتٌ ذات أشكال تشكيليّة مماثلة لتلك التي يجسّدها في بعض الأحيان، تطوّر الأشكال الطبيعيّة. وعلى هذا النحو فلئن كان الأسلوب الأكاديميّ أو الكلاسيكي الذي يعارض كلّ ما يمتّ بصلة إلى الغرابة والجنون أو الوحشيّة، فإنّ هذين النمطين المختلفين أشدّ الاختلاف قد يتطابقان أحيانا مع أطوار اجتماعيّة متناقضة. وبذلك قد يحقّ أن يُنظر إلى الأساليب على أنّها تعبير أو أمارة على وضعيّة أساسيّة، وبالشكل نفسه يمكننا أن نتعامل أيضا مع الأشكال الحيوانيّة التي يمكن بالمثل أن توزّع إلى أشكال أكاديميّة وأخرى مجنونة.

في المرحلة السّابقة للغزو الروماني[1]، كانت الحضارة الغاليّة شبيهة بحضارة الأقوام الموجودة حاليّا بإفريقيا الوسطى ممثّلة بذلك من وجهة النظر الاجتماعيّة، نقيضا حقيقيّا للحضارة الكلاسيكيّة. وإنّه لمن السهل أن نقابل بين غزوات الإغريق أو الرومان المنظّمة، والغارات غير المتناسقة وعديمة الجدوى التي قام بها الغاليّون عبر إيطاليا أو اليونان، وبصفة عامّة إنّ من السهل أن نقابل بين مَلَكة التنظيم الثابتة، والتقلّب والتهييج الذي لا يفضي إلى شيء. فكلّ ما يمكن أن يمنح الناس المتعوّدين على النظام وعيا بالقيمة والسلطة الرسميّة من هندسة وقانون نظريّ وعلم لا ديني، وأدب ، ظلّ مجهولا لدى الغاليّين الذين لا يعملون حسابا لأيّ شيء ولا يضعون تصوّرا لأيّ تقدّم مفسحين المجال رحبا للمقترحات الفوريّة ولكلّ إحساس فظّ.

ثمّة حقيقة ذات طبيعة تشكيليّة يمكن أن تقدَّم بوصفها ردّا ممتازا على هذه المقابلة. فمنذ القرن الرابع قبل الميلاد، شرع الغاليّون، بعد أن استعملوا لمبادلاتهم التجاريّة بعض النقود المستوردة، في ضرب عملات أصليّة محاكين بعض النماذج الإغريقيّة، لاسيّما تلك النماذج التي تحمل في القفا رسما لحصان (وكذلك قطع الستاتير الذهبيّة المقدونيّة). بيد أنّ محاكاة الغاليّين لم تحمل فقط التشويهات الفظّة المعتادة والناتجة عن رعونة النحّات. بل إنّ الخيول المجنونة التي تخيّلتها مختلف هذه الأقوام ليست صادرة عن خطأ تقنيّ بقدر ما هي منبثقة عن شطط ايجابيّ يصل بتأويل أوليّ مبسّط إلى أقصى مدى من النتائج العبثيّة.

إنّ العلاقة بين التعبير الإغريقيّ والتعبير الغاليّ هي أكثر دلالة من أن تكون متعلّقة فقط بالشكل النبيل والمتدبر أحسن تدبر للخيول، تلك الحيوانات التي تعدّ بحقّ الأكثر كمالا والأشدّ أكاديميّة. فلا مجال للتردّد في القول في هذا السياق، حتّى وإن بدا ذلك في منتهى التناقض، إنّ الحصان الذي جعلته إحدى الصدف الغريبة مقترنا

[1] امتدّ الغزو الروماني للغاليين من 58 إلى 51 ق.م وتم إثره إدماج بلاد الغال في الإمبراطورية الرومانية. [كل الهوامش من وضع المترجم]

ببدايات أثينا، هو أحد التعبيرات **الأكثر اكتمالا للمُثل**[1]، مثله في ذلك بالضبط، مثل الفلسفة الأفلاطونيّة أو الهندسة المعماريّة على سبيل المثال. وكلّ تمثيل لهذا الحيوان في الفترة الكلاسيكيّة، يمكن أن يقدّم بوصفه محمّسا دون أن يخفي ذلك كبرياء عاما، وقرابة وشيجة مع العبقريّة الهيلينيّة. إنّ الأمور تجري بالفعل كما لو أنّ الأشكال الجسديّة شأنها شأن الأشكال الاجتماعيّة أو الأشكال الفكريّة تنزع كلّها نحو ضرب من الكمال المثاليّ منه تنبثق كلّ قيمة، وكما لو أنّ التنظيم المتدرّج لهذه الأشكال يسعى إلى أن يستجيب شيئا فشيئا إلى التناغم والتراتبيّة الثابتة اللذين كانت الفلسفة اليونانيّة تسعى إلى أن **تضفيهما على الأفكار**[2] في ذاتها، وعلى الوقائع المحسوسة في ما يتّصل بما هو خارج الأفكار. ومن المؤكّد أنّ الشعب الذي كان أكثر خضوعا من غيره للحاجة إلى رؤية أفكار نبيلة وثابتة تنظّم مسار الأشياء وتقوده، كان قادرا على أن يعبر بسهولة عن وسواسه بتصوير جسد الحصان: فما كان بوسع جسدا العنكبوت وفرس النهر البشعان أو المضحكان أن يلبّيا هذا السموّ الفكريّ.

لقد كانت سخافات الشعوب المتوحشة في تناقض مع الكبرياء العلميّ، وكذلك كانت الكوابيس مع الرسوم الهندسيّة، والخيول-الأمساخ التي تخيّلها الغاليون مع الحصان الأكاديميّ.

إنّ المتوحشين الذين بدت لهم هذه الاستيهامات عاجزة عن تحويل هيجان مضحك متنافر هو سلسلة من الصور العنيفة والمريعة إلى أفكار قياديّة كبرى تمنح الشعوب المنظّمة الوعي بالسلطة البشريّة، كانوا عاجزين أيضا عن أن يتبيّنوا بوضوح القيمة السحريّة للأشكال المتناسقة التي تظهر على ما يصلهم من عملات نقديّة. بيد أنّ انضباطا ومعقوليّة ما مكتملين غاية الاكتمال يفترضان استحالة إقحام عناصر غير معقولة، هما أمران يتعارضان وعاداتِ هؤلاء المتوحشين مثلما تتعارض أنظمة الشرطة مع أهواء اللصوص. فالأمر يتعلّق فعلا بكلّ ما أعاق حتما تقبّل الغاليّين التصوّرَ المثالي لدى اليونانييّن من بشاعة عدوانيّة، وفورات من الهيجان يثيرها

[1] التشديد من عند المؤلف.

[2] التشديد من عند المؤلف.

منظر الدم أو الرعب، وصياح لا ضابط له، أي كلّ ما ليس له معنى ولا جدوى منه، ومالا يثمر أيّ أمل ولا استقرار، وما لا يفوّض أمره إلى أيّ سلطة: وبذلك فإنّ تصدّع صورة الحصان الكلاسيكيّ شيئا فشيئا حتّى بلغت في نهاية المطاف مرحلة جنون الأشكال، قد مثّل انتهاكا للقاعدة ونجح في التعبير أحسن تعبير عن العقليّة الوحشيّة لهذه الشعوب التي كانت تعيش تحت رحمة ما يعنّ لها من نزوات. وعلى هذا النحو فإنّ القردة الخسيسة والغوريلاّت الخيليّة لدى الغاليّين، تلك الحيوانات ذات الطبائع المقزّزة الطافحة بشاعة لكنّها في المقابل تظهر في سمت من الفخامة والعظمة وتتّخذ صورة الأعجوبة المذهلة، تمثّل جوابا نهائيّا صدر من ساحق العصور الإنسانيّة يردّ بطريقة هزليّة وبشعة على تفاهة المثاليّين وعجرفتهم.

ينبغي أن تعقد علاقة تشابه بين هذه المقابلة التي تقتصر في ما يظهر على حقل النشاط البشري، والمقابلات المساوية لها والمعروفة في عالم الحيوان. وبالفعل فمن البديهيّ أنّ بعضا من وحوش الطبيعة مثل العناكيب والغوريلاّت وأفراس النهر، تمثّل تشابها غامضا لكنّه عميق مع الوحوش الغاليّة الخياليّة التي تحقّر شأنها شأن وحوش الطبيعة دقّة الحيوانات الأكاديميّة ومن بينها الحصان. وعلى هذا النحو فلعلّ الغابات الآيلة إلى الفساد والمستنقعات الاستوائيّة الآسنة تواصل الردّ المقزّز على كلّ شيء فوق الأرض يتّسم بالتناغم والإحكام، وعلى كلّ ما يسعى إلى أن يستمدّ من اتّسامه بالدقة مصدرا للسلطة. بل سيكون في بيوتنا أقبية تختفي فيها عناكب وتستتر، وسيكون فيها أوكار أخرى لمظاهر خزي طبيعيّة أخرى. فالأمر أشبه ما يكون ببذاءة مقزّزة مثّلت الوجه المقابل الدائم والحتميّ للأشكال الراقية من الحياة الحيوانيّة. ومن المهمّ أن نلاحظ في هذا الصدد أن علماء الإحاثة يقرّون بأنّ الحصان الحالي منحدر من الجزئيّات الضخمة، وإنّه لانحدار قابل للمقارنة بينه وبين انحدار الإنسان من القرد القبيح ذي الشكل الإنسانيّ. وممّا لا شكّ فيه أنّه من الصعب أن نصل إلى قول فصل في ما يخصّ مسألة الأجداد الحقيقيين للحصان أو الإنسان، على الأقلّ في ما يتّصل بالملامح الخارجيّة. ومع ذلك فلا موجب للتشكيك في حقيقة أنّ بعض الحيوانات المعاصرة كفرس النهر والغوريلاّ تمثّل الأشكال البدائيّة لبعض الحيوانات القائم شكلها على تناسب بيّن. فثمّة ما يحضّ إذن على أن نموضع

المقابلة التي نتحدّث عنها من الوالد إلى المولود ومن الأب إلى الابن، وأن نقدّم وجوها نبيلة ورقيقة تظهر في آخر بالوعة تبعث على الغثيان على أنها حقيقة نموذجية. وإذا كان من الضروريّ منح قيمة موضوعيّة لهذين الطرفين المتقابلين على هذا النحو، فإنّ الطبيعة يتوجّب عليها، وهي التي تعمد دائما إلى المقابلة العنيفة بينهما، أن تقدّم نفسها على أنّها في ثوران مستمرّ بينها وبين نفسها: فأحيانا يتجلّى هذا الثوران عبر الإحساس بالرعب من كلّ ما هو ملتبس لا شكل محدّدا له، فتسود دقّة الحيوان البشريّ أو الحصان، وأحيانا أخرى تتعاقب في صخب وجلبة قويّين أشدّ الأشكال غرابة وتنفيرا. فكلّ الانقلابات التي تبدو متّصلة في الظاهر بطبيعة الحياة الإنسانية تحديدا، ليست إلا ملمحا من ملامح هذا الثوران المتناوَب، واهتزازا حادّا تنشأ معه حركات غضب تبدو، إذا ما تأمّلنا بصورة اعتباطيّة تعاقب ثورات امتدّت دهورا من الزمن، في خفقان وإزباد كما لو أنها موجة بحر في يوم عاصف.

وممّا لا شكّ فيه أنّه من الصعب متابعة دلالة هذه الاهتزازات من خلال التحولات التاريخية. يمكننا أحيانا في ما يتّصل بالغزوات الكبرى فقط، أن نرى بوضوح عدم انسجام لا أمل له في أن يتغلّب على الطريقة العقلانية في التنظيم التدريجي. لكنّ ما يصيب الأعمال التشكيليّة من تشويه هو الذي يجسّد في الغالب العلامة الرئيسيّة على الانقلابات الكبرى. وعلى هذا النحو قد يذهب بنا الظنّ أن لا شيء يتقلب اليوم لو لم يأت رفض كلّ مبادئ الانسجام المنتظم دليلا على ضرورة التحوّل. ولكن لا ينبغي أن نغفل من جهة أخرى عن أمرين اثنين: أوّلهما أنّ هذا الرفض القريب العهد قد أحدث أشدّ مظاهر الغضب عنفا كما لو أنّ ركائز الوجود نفسها قد وضعت موضع تساؤل. وثانيهما أنّ الأحداث قد اتّخذت في المقابل مجرى خطيرا خطورة لم تقدّر أحسن تقدير إلى حدّ الآن، وفي ذلك تعبير عن حالة فكريّة تتنافر تنافرا تاما مع شروط الحياة الإنسانية الحالية[1].

[ترجمة: محمد آيت ميهوب]

[1] المصدر: جورج باتاي، مجلة **وثائق**، عدد 1، أفريل 1929.

عبثاً نرى، في مظهر الأشياء، العلاماتِ البائنةَ التي تسمح للعناصرِ المنوّعة أن تتميز كلّ عن سواها. إن ما يصدمُ عينَي المرء لا يقرّر معرفةَ العلاقاتِ بين الغاياتِ المنوّعة فقط، بل حالةَ العقل القاطعةَ المفترضَةَ وعصيّةَ التفسير. فيكشف منظرُ زهرةٍ، وهو حقيقيّ، مثولَ هذا الجزء المحدّد من نبات، لكن يستحيلُ التوقّفُ عند الرصدِ السطحيّ؛ فواقعياً، يستثير منظرُ هذه الزهرة في العقلِ انفعالاتٍ مميزةً أكثر بكثير، لأن الزهرة تعبر عن قرار نباتيٍّ مبهَم. بماذا يكشف الترتيبُ ولونُ التوَيج، بماذا تفشي الآثارُ المتّسخةُ لحبّ اللّقاحِ أو طزاجةِ الأعضاء الأنثوية بما نعجزُ أغلبَ الظنّ عن التعبير عنه بنحوٍ كافّ لغوياً؛ فمن العبثِ (كما يحدثُ عامةً) تجاهلُ هذا **المثولِ الحقيقيّ** عصيّ التفسير ورفضُ محاولاتٍ معينة (بعبثٍ صبيانيّ) للتأويل الرمزيّ.

ستكون لمعظم التجاورات من **لغة الأزهار** سمة طارئة وسطحية، قد نتوقّعها قبلما نستشير القائمة التقليدية. لو تقبّلت الهندباء النمو، الأَثَرةَ النرجسيةَ، **ولذوعة** الزهرة الموجعةَ، فسنرى السبب في يُسرٍ أيضاً. لا يتضّح بالموازنةِ هنا التبصّرُ بمعنى الأزهار السريّ، وقد يتبيّن المرءُ الميزاتِ المشهورةَ أو الخرافةَ المقبولة. قد يبحث المرء عبثاً، بالإضافةِ، عن التماثلاتِ التي تنقل بشكل لافتٍ فهماً خفياً للأشياءِ هنا محلّ السؤال. في الحقيقة، ما يهمّ قليلاً أن زهرةَ الحمامة رمزُ الحزن، زهرةَ التنّين رمزُ الرغبة، وزنابقَ الماء رمزُ اللامبالاة.. ومن المناسبِ إدراكُ أن مثلَ هذا التقريبِ قد يتكرّرُ في أيّ وقت، وأنه قد يفي بإضفاء أهميةٍ أصلية إلى تأويلاتٍ أبسط، كمَن يربط الوردةَ أو القربيون بالحبّ. ولا ترمزُ هاتين الزهرتين وحدهما، من دون ريب، للحبّ البشريّ . وإن كان التوافق منضبطاً أكثر (كما يقول صاحبُ القربيون: "**أنتِ التي أيقظتِ حبي**"، فيضطربَ بتبليغهِ هذه الزهرةَ الظليلة)، وهو مع الأزهار عامةً، وليس لأيّ زهرةٍ محدّدة، فُتنَت بأن تتّسمَ بميزةِ الغرابة في كشفِ مثولِ الحبّ.

يبدو هذا التأويلُ غير مفاجئ: فالحبّ في الحقيقة قد يُطرَح من البدايةِ كوظيفةٍ طبيعية للزهرة. لهذا فإن سِمتَه الرمزيةَ وافيةٌ، حتى هنا، كميزةٍ مستقلّةٍ، لا من مظهَرٍ يصدم الحساسيةَ البشريةَ في غموض. وقد يكون ذا قيمةٍ موضوعيةٍ محضة. قد يربطُ الناس بين بريق الأزهار وانفعالاتهم الغرامية، فهو، من الجانبين، بمثابة الظاهرةِ التي تسبق الإخصابَ. من ناحيةٍ أخرى، قد يعزّز الدورُ الممنوح للرموز بتأويلات التحليلِ النفسيّ، تفسيراً من ذلك النمط. وهو نمط في الحقيقة، دائماً، تقريباً، من التوازي العرَضيّ يعلّلُ أصلَ استبدالاتِ الأحلام. ضمنَ أشياءٍ أخرى، نرى القيمةَ المعطاةَ لتشير أو تستوعبَ الأهدافَ معروفةٌ على نحوٍ لائق.

هكذا ينبذ المرءُ سريعاً الرأي القائلَ بأن الأشكالَ السطحيةَ، إن كانت مغويةً أو مفزعةً، فهي تكشفُ حلولاً معينةً مصيريةً للظواهرِ كافّةً، تلك التي تضخّمها الحلولُ البشرية. وهنالك سببٌ معقول لصرفِ النظر عن إمكان استبدالِ **الكلمة بالمظهر** كعنصر للتحليل الفلسفيّ. سيكون من اليسير تبيانُ أن **الكلمةَ** تسمحُ للمرءِ بتأملِ سماتِ الأشياء التي تقرّر موقفاً نسبياً، بمعنىً آخر الميزات التي تجيز فعلاً خارجياً. مع أن **المظهر** قد يعرِضُ هذه القيمَ الفاصلةَ للأشياء..

يبدو أولاً أن المعنى الرمزيّ للأزهار لا يُستقَى بالضرورةِ من وظيفتها. ومن الجليّ، في الحقيقة، أنه لو عبر المرء عن الحبّ بعونٍ من الزهرة، فالتويج، فضلاً عن الأعضاء المفيدة، يصبحُ علامةً على الرغبة.

وقد ينشأ هنا اعتراضٌ مزيّف ضدّ التأويلِ عبر قيمة **المظهر** الموضوعية. فاستبدال العناصرِ المتجاورةِ، في الحقيقة، بالعناصرِ الجوهرية، لَهوَ أمرٌ يتّسق مع كلّ ما نعرفه عفوياً عن الانفعالات التي تستحثّنا، لأن موضوع الحبّ البشريّ ليس عضواً، بل لِمَن يملكُ هذا العضو. هكذا نفسّر نسبةَ التويجِ إلى الحبّ بسهولة: لو استبدلنا شارةَ الحبّ من فرْج الزهرة وقضيبها بالأوراق المحيطة، فهو دليل أن العقل البشريّ يألف

مثل هذا الاستبدال فيما يتعلّق بالناس. وعلى رغم أن الموازاةَ غير منكرةٍ في هذين الاستبدالين، إلا أنه يلزم أن نعزي للعنايةِ الإلهية الصبيانية الرغبةَ الفريدةَ في إشباعِ هوسِ الناس: أنّى للمرء، إذن، أن يفسّر مثل هذه العناصرَ الصارخةَ، المستبدلَة آلياً بأعضاءِ الزهرة الأساسية، وهي تتطوّر بهذه الطريقة الباهرة؟

قد يكون أبسط بوضوح أن نميز سماتِ الأزهارِ المثيرةَ للشهوةِ، كالعطر والمظهر، التي تثير مشاعر الرجال والنساء الغرامية عبر القرون. هناك ما يتولّد متفجّراً في الطبيعة، وقتَ الربيع، كنوباتِ الضحك يتولّد، خطوةً خطوة، يستثير كلّ منها الآخر فيكثّفه. قد تتنبّه أشياء عدّة بالمجتمعات البشرية، لكن لا يسود شيءٌ ضدّ الحقيقة الطبيعية التي تدلّ بها امرأة جميلة أو وردة حمراء على الحبّ.

هناك تفاعلٌ، لا يُفسّر بالتساوي ولا يتغير بالتساوي، يمنح الفتاةَ والوردةَ قيمةً مختلفة تماماً: الجمال المثاليّ. هنالك فعلاً حشدٌ من الأزهار الجميلة، حيث جمالُ الأزهار أندر قليلاً من جمال الفتياتِ، ومن سماتِ هذا العضو من النبات. يستحيل قطعاً أن نستخدم وصفة مجرّدة لتعدادِ العناصر التي قد تهب الزهرةَ هذه الميزة. والمثير أن نلاحظ، على أيّ حال، أن لو قال امرؤ: الأزهارُ جميلةٌ، فلأنها تبدو **متوافقة مع ما يجب أن تكون عليه**، بمعنىً آخر، فهي تمثّل، كالأزهار، **المثال البشريّ**.

باللمحةِ الأولى على الأقلّ، وعامةً: تتطوّر معظم الأزهار، في الحقيقة، على نحو ملحّ ونميزها بالكاد عن ورق الشجر؛ بعضها حتى بغيض، إن لم يكن شائناً. علاوةً، تتلفُ أجملَ الأزهارِ قلوبُها بأعضائها الجنسيةِ المزغبة. فلا يتوافقُ كلياً باطنُ أيّ زهرةٍ مع جمالها الظاهريّ؛ ولو مزّق أحد أوراق التويج، فكلّ ما يتخلّف خصلةٌ بائسةٌ نوعاً. أما الأزهار الأخرى، فتقدّم حقاً أعضاءها الذكريّةَ الأنيقةَ المتطوّرةَ بما لا ريبَ فيه، لكنها تناشد من جديدٍ الحسّ العام، ويتّضح من الفحص عن كثَب أن هذا الظُرف شيطانيّ نوعاً: هكذا نرى أنماطَ زهرةِ الأوركيدِ الخصبةِ، النباتاتِ الظليلةَ، حتى لَيفتتَن المرءُ أن ينعتها بأكثر الانحرافات البشرية المقلقة. وقد تُفشي الزهرةُ من

هشاشةِ تويجاتها أكثرَ أعضائها الفاحشة: وهو، بعيداً عن الإيفاء بمطالبِ الأفكار البشرية، علامةُ إخفاقها. فبعد فترة قصيرة من البهاء، في الحقيقة، يتعفّن التويج البهيّ تحت الشمسِ في غير احتشام، لأن النبات هلاك صارخٌ. تبدو الزهرةُ، وهي تنبعث من نتن أكوامِ الروَث . على رغمِ أنها تبدو لوهلةٍ قد فرّت منه في طيرانٍ ناصعٍ قيثاريّ وملائكيّ . كمن ارتدّ فجأةً إلى بؤسه الأصليّ: الأكثر مثالية أنها تُختزل سريعاً إلى خُصلةٍ من روَثٍ متطاير. فلا تعمّر الأزهار حقاً كالأوراق التي لا تفقد من جمالها شيئاً، وحتى بعدما تموت الأزهار؛ تذوي كالأراملِ الطروبِ العجائز اللاتي يتجمّلن بإفراط، تموت في سفاهةٍ على سيقانها وهي تبدو كأنها تحملها إلى السحاب.

يستحيلُ المبالغةُ أن هذه التقابلات التراجيكوميدية المحدّدة ضمن سياق دراما الموت، ستظلّ تمثَّلُ من دون نهاية بين الأرض والسماء، فمن الجليّ أن المرء قد يعيد صوغَ هذا النزاعِ الساخر بتقديم هذا الابتذال المغثّي، لا بوصفه جُملةً، لكن بدقّةٍ أكثر كبقعةِ حِبر: **الحبّ فوّاح كالموت**. يبدو، حقاً، أن الرغبةَ لا تُجدي مع الجمال المثاليّ، أو بدقّةٍ أكثر، تنشأ فقط كي تلطّخ وتُذوي الجمال الذي يعدّ بالنسبة لشخوصٍ عدّة حزانى ومنظّمين مجرّدَ حدٍّ، **حتميةً قاطعة**. ولا تمثّل هذا الزهرةُ الأشدّ إبهاراً، فهي تابعةٌ لحشو كلام الشعراء القدامى، كتعبير باهت عن مثال ملائكيّ، بل النقيض، كانتهاكِ حُرماتٍ فاحشٍ وفاضح.

هنالك سببٌ معقول لنصرّ على الاستثناء المقدَّم بالزهرةِ، في هذا المقام، على النبات. فلو داومَ المرءُ، في الحقيقة، تطبيقَ طريقةِ التأويلِ المقدّمة هنا، بوجه العموم، فالجزء الظاهريّ من النباتِ قد وهِبَ معنىً غير ملتبسٍ. حيثُ يعطي، عموماً، مظهرُ السيقان المورقةِ انطباعاً بالقوة والمهابة. أما الالتواءات المعتوهة من التعريشاتِ والجروحِ غير المألوفة من الأوراق، فتحمل بلا ريب شهادةً على حقيقةِ أنها ليست جميعاً متماثلة في خلو انتصاب النباتات من الخطأ. ولا يسهم شيءٌ بقوة في إدخال السكينة إلى قلب المرء ورفع معنوياته، إضافةً لأفكاره المتسامية عن العدل والسداد، أكثر من مشاهد الحقول والغابات، جنباً بجنب مع أجزاء النبات

متناهية الدقّة، التي تبرهن أحياناً على نظام معماريّ قويم، فتسهم في انطباع عام عن الدقّة. لا شقوقَ، كما يبدو . قد يقول المرء بغباء: **لا دجَل** . تزعجُ بوضوحٍ انسجامَ الطبيعةِ النباتيةِ المقدّر. الأزهار نفسها، الضائعةُ ضمنَ هذه الحركةِ الهائلةِ من الأرض إلى السماء، تستدقّ إلى دورٍ عرَضيّ، إلى انحرافٍ، علاوة على ما يُساء فهمه ظاهرياً: إنها تُسهم فحسب في كسرِ الرتابةِ، تبعاً للغوايةِ الحتميةِ الناجمة عن دفعٍ عامٍ من أسفلَ لأعلى. وكي ندمّر هذا الانطباعَ المواتي، لا يلزم أقلّ من رؤية الجذور الخيالية والمستحيلة وهي تتجمهرُ تحت سطح التربة، مغثّيةً وعاريةً كالقمل.

تمثّل الجذور، في الحقيقة، النظير التامّ للأجزاء المرئية من النبات. بينما تتسامَى الأجزاءُ المرئية في نبلٍ، تتخبّط بالتربةِ الجذورُ الدبقةُ والخسيسةُ، فتعشق النتنَ كما تعشق الأوراقُ النورَ. وهنالك سبب نلحظه، بالإضافة، أن القيمة الأخلاقية المتحقّقة لمصطلح **قاعدة** توافق هذا التأويل المنهجيّ لمعنى الجذور: فما يمثّله **الشرّ** حتماً، بين الحركات، هو الحركة من أعلى لأسفل. وهي حقيقة يستحيل شرحها إن لم نحدّد المعنى الأخلاقيّ للظاهرة الطبيعية، التي تُستلّ منها هذه القيمة، أو بالدقّة بسبب من سمة **المظهر** البارزة، شارةً على حركات الطبيعة القاطعة.

يبدو مستحيلاً، فوق ذلك، أن نلغي الخصومة الفاضحة كتلك التي تميز الساق عن الجذر. تثبتُ خرافةٌ واحدةٌ بالتفصيلِ ذلك الاهتمامَ المرَضيّ، المتبدّي دائماً بدرجةٍ أكبر أو أقلّ، في الأجزاء التي تغرز نفسها بالأرض. إن فُحشَ جذر اللّفاح طارئٌ من غير شكّ، كأغلبية التأويلات الرمزية النوعية، لكنه لا يوافق هذا النمط من التوكيد، المدِين به جذر اللّفاح للنزعةِ الشيطانيةِ الخرافية، بما يتأسّس على شكلٍ خسيسٍ جليّ. مثلما تُعرف القيم الرمزية للجَزَر واللّفت أيضاً بوضوح.

والأصعب تبيان الخصومة ذاتها البادية في جزءٍ معزولٍ من النبات، الزهرةِ، حيث يتّخذ معنىً درامياً استثنائياً.

ليس ثمةَ شكّ: في أن استبدالَ الأشكالِ الطبيعيةِ للتجريداتِ المستخدمة حالياً من قبل الفلاسفةِ لا يبدو غريباً فقط بل عبثياً. قد يكون ثانوياً تماماً أن يلجأ الفلاسفة أنفسهم غالباً، وإن بتناقض، إلى مصطلحات تستقي قيمتَهم من إنتاجِ هذه الأشكالِ بالطبيعة، كحديثهم عن **الخِسّة**. لا يتضاربُ العمى مع الدفاع عن ميزات التجريد. كما أن هذا الاستبدال يهدّد بحمل المرء إلى بعيد: قد ينتج، في المقام الأول، حسّاً بالحرية، توفّر المرء الحرّ على ذاته بكلّ معنى الكلمة، والذي لا يحتمله تماماً الجزء الأكبر، والازدراء المنهك لكلّ ما لا يزالُ . بفضل المراوغاتِ البائسةِ . متسامياً نبيلاً مقدّساً.. ألا تخاطر هذه الأشياء الجميلة بكونها تزلّ في **تدرّجٍ** غريبٍ، قُدّر له أن يجعلَ انتهاكَ الحُرماتِ أكثرَ دنَساً؟ كلمحةِ ماركيز دو ساد المربكةِ، وهو حبيسٌ وسطَ مجانين، حينَ نالَ أجملَ الأزهار، فما كانَ منه إلا أن قطفَ أوراقَها قاذفاً بها في مصرفٍ ملؤهُ رَوَثٌ سائل . في هذه الظروف، ألا نرى لمثل هذا من تأثير غامر؟

[ترجمة: محمد عيد إبراهيم]

جُورْجْ بَاتَايْ: ڤَانْ غُوغْ پْرُومِيثْيُوسْ

كيف تبدو وجوه طاغية بقوة إقناع مطمئنة؟ كيف تتألق فجأة أشكال منبثقة من حقل الفوضى ذات الإمكانات اللامحدودة تألقاً لا يترك أي مجال للشكّ؟ يبدو هذا للأغلبية مستقلاًّ عن تصاعد صخب الحشود. لا وجود لأية حقيقة يمكن تقبّلها بهدوء. إن معنى لوحة فنية لا يمكن بأية حال أن يعتمد، بالنسبة لشخص استوقفته هذه اللوحة يوما في تأمّل مطوّل، على تقبّل شخص آخر لها.

من المؤكد أن وجهة النظر هذه هي نفي لكلّ ما يمكن أن ينبثق بديهياً أمام لوحات معروضة؛ فكل زائر يبحث عن الحكم الذي ينتظره الآخرون أكثر من بحثه عمّا يحبّه هو. ولكن لا معنى للإصرار على البؤس الذي يغرق فيه كلّ شخص يشاهد أو يقرأ. بعيداً من هذه الحدود السخيفة للحياة التي ترسمها العادات الحالية لصالح الهرج عديم القيمة، كالهرج الذي تثيره لوحات الفنان فان غوغ واسمه، يمكن فتح عالم لا ينتمي لهذا أو ذاك، عالم يُبعد الحشود بمكر، وهو عالمنا نحن، عالم كائن إنسانيّ قادر على التخلّص بحركة سعيدة من معطفه الشتوي المغبر الثقيل عندما يحلّ الربيع.

لن يستطيع مثل هذا الكائن الذي تخلّص من معطفه وانساق مع الحشود ببراءة —— أكثر ممّا انساق معها باحتقار —— أن يشاهد لوحات فان غوغ التراجيدية، دون أن تثير فيه مشاعر الرعب، وهي لوحات تشبه الكثير من العلامات المؤلمة التي تصوّرُ الأثر الملموس لحياة هذا الفنان، ولكن هذا الكائن نفسه يستطيع في المقابل أن يشعر بالعظمة التي يمثّلها ڤان غوغ ليس في حد ذاته، فهو لا شيء، إنه لا يزال يرزح تحت ثقل البؤس العام في كل لحظة —— ليس في ذاته فقط، ولكن أيضا في ما يحمله في عريه، والآمال اللامتناهية للكائن البشري الذي يريد أن يحيا وأن يخلّص الأرض إن لزم الأمر من سلطة من قد لا يشبهه؛ وهو مشبع بهذه العظمة المقبلة كليّاً، تحوّل

الرعب الذي كان يشعر به في داخله إلى رعب هزلي — هزلي حتى في الأذن والبيت المغلق وانتحار «ڤانسان»: الم يجعل هذا الرسام من التراجيديا الإنسانية الموضوع الوحيد لحياته كلّها، سواء حينما يبكي أو يضحك أو يحبّ أو خاصة حينما يناضل.

لا يمكنه في الواقع ألاّ يندهش حد الاستغراق في الضحك أمام قوّة السحر الذي يستمر في الاكتمال أمام عينيه، سحر قد يتطلب من متوحشين بدون شكّ حشداً كاملاً استحوذت عليه الثمالة والصيحات المتكرّرة ودقّات الطبول العديدة. فالأذن التي انتزعها ڤان غوغ من رأسه ليحملها إلى ذاك «المنزل» (صورة مضطربة وطفولية على نحو فج، لهذا العالم الذي نحنُ إياه أمام الآخرين) ليست مجرد أذن دامية، فهي أكثر بكثير من مجرد أذن، فقد اعتقد ڤان غوغ منذ سنة 1882 أنَّه من الأفضل للإنسان أن يكون پروميثوس بدل أن يكون كوكب المشتري، وبالتالي فهو لم يقتلع من جسده أكثر من مجرد شمس.

يفترض الوجود الإنساني قبل أي شرط آخر الثبات واستمرارية الأشياء وينتج عن ذلك موقف غامض إزاء كل تبديد كبير وعنيف للقُوَى، إذ أن هذا التبديد سواء كان بفعل الطبيعة أو بفعل الإنسان نفسه، فهو يمثل أكبر التهديدات الممكنة. يؤدي الشعور بالإعجاب والنشوة التي يثيرها هذا التبديد إذاً إلى الرغبة في تأمّله عن بعد. تستجيب الشمس لهذا المبدأ بالطريقة الأكثر ملاءمة لمثل هذه الرغبة شديدة الحذر. هي ليست سوى توهّج وفقدان هائل للحرارة والضوء ولهب وانفجار، لكن بعيداً عن الذين يستطيعون، وهم محميون، أن يستمتعوا بالثمار الآمنة لهذا الدمار الكبير —فالصلابة التي تحتمل المنازل الحجرية والخطوات تنتمي للأرض أو على الأقل لسطحها لأنّ الحمم السائلة تتوهج في أعماقها.

إذا أخذنا في الاعتبار هذه المعطيات وجب القول أنه بعد ليلة ديسمبر 88، وعندما لاقت أذن فان غوغ مصيراً يبقى مجهولاً في البيت الذي سقطت فيه (لا يمكن أن نتخيل إلاّ بشكل ضبابي الضحك والضيق اللذين يسبقان بعض القرارات الغامضة)،

شرع ڤان غوغ في منح الشمس معنى لم يُمنح لها حتى تلك اللحظة. لم يدرجها ڤان غوغ في لوحاته باعتبارها جزءاً من الديكور، بل جعلها كالساحر الذي تهز رقصته الحشود ببطء فتنساق مع حركات جسده. ففي هذه الحركات كفت لوحاته عن أن تكون شعاعاً وانفجاراً وشعلةً كما كفّ هو نفسه عن أن يكون ذاته وقد ضاعَ مذهولاً أمام بيتٍ من النور مشعّ مُتفجر وملتهب. عندما بدأت هذه الرقصة الشمسية فجأةً، انهارت الطبيعة ذاتها وذوت النباتات وتماوجت الأرض كبحر سريع أو هائج. لم يتبق شيء من الثبات الذي يمثّل دعامة الأشياء. تبدّى الموت بشكل من الشفافية كما تتبدّى الشمس من خلال دماء يد نابضة بالحياة من بين العظام التي تشكّل الظلال. الزهور المتفتحة والذابلة، وذاك الوجه ذو الألق التائه المحبِط (بفعل القلق أو التسلّط؟)، وضع عباد الشمس عند ڤان غوغ حداً لقوة القوانين الثابتة والدعائم وكل ما يسيجُ العديد من الوجوه بأسوار ويمنحها طابع انغلاق مقرف.

لكن لا يجب أن يفسح هذا الانتقاء المتفرّد للشمس مجالا لخطأ عبثي ما؛ فلوحات ڤان غوغ لا تمثّل أكثر من طيران پروميثوس وتكريم للسيد المبعد من السماء، كما أنَّ الشمس فيها ليست طاغية بما أنها أسيرة.

بعيدا عن إدراك قوة الكارثة السماوية، وكأنه لم يتوجب سوى مدّ المساحات الأرضية الرتيبة بعيداً عن كل تغيير، تنبهر الأرض من هذه الكارثة ومن هذا الفقدان من البريق الناسف شبيهة، مثل فتاة اكتشفت فجأة فجور والدها وتهتّكه فأصيبت بالذهول والارتباك.

هذا ما يفسّر الطابع الاحتفاليّ الكبير للوحات ڤان غوغ. الم يمتلك الرسام أكثر من معنى الزهور التي تمثل هي الأخرى على الأرض كُلاً من الثمالة والاضطراب السعيد: زهور تينع وتتألّق وتحني رأسها الملتهب في شعاع الشمس ذاته الذي سيُعرضها للذبول. في هذه الولادة العميقة كثير من الاضطراب الذي يبعث على الضحك، إذ كيف لا يمكن إبصار سلسلة العقد التي تجمع بكل تأكيد كلاً من الأذن والمعزَل

والشمس والموتِ وأكثر الاحتفالات بهجة. لقد قطع ڤان غوغ أذنه بموسى حلاقة ثم حملها إلى منزل مغلق اعتاد التردّد عليه؛ هزَّةُ الجنون مثلما تُثير رقصة عنيفة نشوة جماعية. لقد رسم أحلى لوحاته، ثم احتجز نفسه لبعض الوقت في أحد الملاجئ، وبعد 18 شهراً من قطع أذنه انتحر.

ما عسى أن يعني الفن أو النقد بعد أن يحدث كل شيء بهذا الشكل؟ هل يمكن أن نؤكّد في الظروف الراهنة أن الفن هو المسؤول الوحيد عن ضجيج الحشد في قاعات العرض؟ لا ينتمي ڤانسان ڤان غوغ إلى تاريخ الفن، بل لأسطورة وجودنا الإنساني الدامية. إنه ينتمي للعدد القليل من أولئك الذين بلغوا فجأة في عالم من الثبات والنوم نقطةَ الغليان الرهيبة التي من دونها يصير كلّ من يدعي الاستمرارية باهتا ولا يمكن التسامح معه ثم ينحط. ذلك أنه ليس لمثل «نقطة الغليان» هذه غير معنى واحد لمن يبلغها، بل للجميع ولو أنهم لا يدركون بعد ما يجمع القدر الإنساني المتوحش بالتألّق والانفجار واللهب، وبالتالي بالقوّة وحدها.

[ترجمة:رويدة سالم، مراجعة:محمد أسليم]

جُورْجْ بَاطَايْ: الْقَامُوسُ النَّقْدِيُّ

خلال سنتي 1929-1930، أسس جورج باطاي، ميشال لِئرِيسْ [Michel Leiris] ورُوجِي كَايْوَا [Roger Caillois] مجلة وَثَائِقُ [*Document*] لتكون منشورا لكوليج علم الاجتماع، كمجموعة بحث متخصصة بدراسة إِنَاسَةِ [أنثروبولوجيا] المقدَّسِ والفن والطبيعة والجنون ومظاهر الحياة الحديثة بما تحويه من هامشيات يحاول المجتمع "السَّوِيُّ" طردها "خارج أسوار المدينة". وكانت من المهام الأساسية لهذه المجموعة صياغة قاموس نقدي يعيد النظر جذريا في مفاهيم الإناسة الكلاسيكية عبر مداخل معجمية قصيرة ومتوسطة الطول، ولكن بلغة كثيفة. أسهمت فيها الأسماء الثلاثة المؤسسة إضافة إلى الناقد الفني ذي النظر الثاقب كَارْلْ أَيْنْشْتَيْنْ [Carl Einstein]، الذي اختفى سريعا للأسف. هنا مدخلان من هذا القاموس، مِنْ وَضْعِ باطاي.

[المترجِم]

جَمَلٌ

اَلْجَمَلُ، الَّذِي يَبْدُو مُثِيرًا لِلضَّحِكِ بِالنِّسْبَةِ لِقَاطِنٍ بِبَارِيسَ، يَجِدُ مَكَانَهُ الطَّبِيعِيَّ فِي الصَّحْرَاءِ: فَهُوَ مُضِيفُ تِلْكَ الْأَمْكِنَةِ الْفَرِيدَةِ؛ إِلَى حَدِّ أَنَّهُ يَنْفَقُ إِنْ نَقَلْنَاهُ بَعِيدًا عَنْهَا؛ إِذْ يَنْدَمِجُ فِيهَا عَبْرَ هَيْأَتِهِ، لَوْنِهِ، مِشْيَتِهِ. يُسَمِّيهِ الشَّرْقِيُّونَ سَفِينَةَ الصَّحْرَاءِ؛ حَرِكًا عَبْرَ مُحِيطَاتٍ مِنَ الرِّمَالِ، يَعْبُرُهَا بِحُدَائِهِ المنْتَظِمِ وَالْهَادِئِ، كَمَا تَمْخُرُ السَّفِينَةُ عُبَابَ الْبَحْرِ. مَاذَا سَتَقُولُ نِسَاؤُنَا المحْبُوبَاتُ عَنْ تِلْكَ الْأَشْعَارِ الشَّرْقِيَّةِ الَّتِي تُشَبَّهُ فِيهَا الْحَرَكَاتُ المتَنَاسِقَةِ لِلْمَعْشُوقَةِ بِمِشْيَةِ النَّاقَةِ المنَغَّمَةِ؟

فِي وِجْهَةٍ مُضَادَّةٍ لِرَأْيِ أُوْجِينْ دُولَاكْرْوَا [فِي كِتَابِهِ **دِرَاسَاتٌ جَمَالِيَّةٌ**]، فَمِنْ بَيْنِ الْأَشْكَالِ الموْحِيَّةِ بِالْبَلَادَةِ، يُعْتَبَرُ شَكْلُ الْجَمَلِ، عَلَى الْأَرْجَحِ، أَعْظَمَهَا، وَفِيمَا يَبْدُو أَفْجَعَهَا. مَظْهَرُ الْجَمَلِ الْخَارِجِيُّ يُوْحِي، بِتَوَازٍ مَعَ الْعَبَثِيَّةِ الْعَمِيقَةِ لِلطَّبِيعَةِ الْحَيَوَانِيَّةِ، بِالطَّبْعِ الْكَارِثِيِّ وَالمتَصَدِّعِ لِهَذِهِ الْعَبَثِيَّةِ وَالْبَلَادَةِ. لَنَا حَتَّى أَنْ نَعْتَقِدَ أَنَّ الْجَمَلَ مِمَّا يَتَوَاجَدُ فِي النُّقْطَةِ الْأَكْثَرِ حَرَاجَةً فِي الْحَيَاةِ بِأَسْرِهَا، حَيْثُ الْعَجْزُ أَقْصَى دَرَجَاتِ الشَّقَاءِ.

*
* *

لَامُشَكْلَنٌ

لِلْقَامُوسِ أَنْ يُفْتَتَحَ مِنْ لَحْظَةٍ لَنْ يُعْطِيَ فِيهَا مَعْنَى بَلْ مَشَاقَّ الْكَلِمَاتِ. فَكَلِمَةُ **لَامُشَكْلَنٌ** لَيْسَتْ، بِالتَّالِي، صِفَةً ذَاتَ مَعْنًى مُعَيَّنٍ فَقَطْ، بَلْ عِبَارَةً نَتَوَسَّلُهَا لِحَجْبِ التَّصْنِيفِ ضِمْنَ مَجْمُوعَةٍ خَاصَّةٍ، وِفْقَ مُقْتَضًى عَامٍّ يَسْتَلْزِمُ أَنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ شَكْلَهُ الَّذِي يَخُصُّهُ. مَا تُعَيِّنُهُ هَذِهِ الصِّفَةُ لَا تَسْتَتْبِعُ حُقُوقَهَا فِي أَيِّ مَعْنًى مِنَ المعَانِي؛ وَتُسْحَقُ، أَيْنَمَا كَانَتْ، كَعَنْكَبُوتٍ أَوْ كَدُودِ الْأَرْضِ. يَتَوَجَّبُ عَلَى الْكَوْنِ، فِي الْحَقِيقَةِ، كَيْ يُحِسَّ الْأَكَادِيمِيُّونَ بِالرِّضَا، أَنْ يَتَّخِذَ لَهُ شَكْلًا. لَيْسَتْ لِلْفَلْسَفَةِ قَاطِبَةً أَيَّةُ غَايَةٍ أُخْرَى: يَنْبَغِي لِكُلِّ الموْجُودَاتِ أَنْ تُشْتَمَلَ بِمِعْطَفٍ طَوِيلٍ مَعْقُودٍ عِنْدَ الْخِصْرِ، بِمِعْطَفٍ يَتَوَخَّى دِقَّةَ الرِّيَّاضِيَّاتِ. وَلَكِنْ، أَنْ نُؤَكِّدَ، عَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ، أَنَّ الْكَوْنَ لَا يُشْبِهُ شَيْئًا وَأَنَّهُ لَيْسَ إِلَّا **لَامُشَكْلَنًا**، فَكَأَنَّنَا نَقُولُ بِأَنَّ الْكَوْنَ شَيْءٌ شَبِيهٌ بِعَنْكَبُوتٍ أَوْ بِبَصْقَةٍ.

[ترجمة: رشيد وحتي]

سنحاول[1] في مداخلتنا هذه أن نتناول مفهوم الالتزام عبر السجال الذي دار بين اثنين من أبرز كتاب فترة ما بين الحربين في فرنسا، هما جان بول سارتر [Jean-Paul Sartre] وجورج باتاي [Georges Bataille]. ولبّ الخلاف بين هذين المفكرين يتمثل في كون الأول يعتقد أن "النثر هو نفعي في جوهره". وهو لذلك "يُعرّف الناثر بكونه ذاك الذي يصرف الكلام على وجوه شتى، ويتمثل دوره في التعيين والتعليل والرفض والتساؤل والتوسل والإقناع والإيحاء والشتم". فإن حاد عن هذا النهج أضحى يتكلم فيما لا جدوى منه[2]. أما جورج باتاي فيرى أن الكلام، والأدب بصورة خاصة، إذا اقترن بالمنفعة، فقد ارتهن نفسه لخدمة ما لا جدوى له فيه، ووقع بذلك في الاستلاب، فمن جوهر الأدب، في نظر باتاي، "أن لا يخضع لسيد أبدا [*non serviam*]"، فهو يدين بالمبدأ الشيطاني الذي يرفض أن يكون في خدمة أحد آخر غير نفسه لأنه شيطاني التوجه بالضرورة[3].

يتعين على الكاتب – وهو الناثر، كما ينص على ذلك جان بول سارتر، الذي يعفي الشاعر من ربقة الالتزام لأسباب يطول شرحها في هذا المقام[4]– أن يمسك بالقلم إلا إذا عاين في العالم حوله خللا أو قصورا يعرض الحرية، وهي في نظره قوام الوجود، للخطر. ويذهب سارتر، تماهيا مع برايس باران [Brice Parain]، أن

---

[1] ألقيت هذه المداخلة في إطار ندوة نظمتها كلية الآداب سوسة حول علاقة الأدب بالالتزام بتاريخ 19 أفريل 2014.

[2] جان بول سارتر، **ما الأدب؟**، غاليمار، سلسلة "دراسات"، باريس، 1948، ص: 25.

[3] جورج باتاي، **رسالة إلى روني شار** [René Char]، ضمن **الأعمال الكاملة**، غاليمار، باريس، 1988، ج. 12، ص: 19.

[4] **ما الأدب؟**، مصدر سابق، صص: 24-25.

"الكلمات هي مسدسات محشوة بالذخيرة"، وأن "الكاتب متى تكلم أطلق النار"[1]. ويضيف سارتر أن على الناشر، إذا ما عزم على إطلاق النار، أن يقوم بذلك على طريقة الجنود وليس على طريقة الأطفال[2]. وقد كان سارتر واعيا تمام الوعي أن الكلام أعجز من أن يكف الشطط المتأصل في الكائن البشري، ذلك الذي يُخرج القسوة في حلة الرّحمة فيهوِّن على الإنسان الجرائم الفظيعة التي عجزت دونها تعاليم الأرض والسماء. لذلك قرر أنّ "على الكاتب أن يتخلى عن قلمه في وقت ما وأن يحمل السلاح" للذود عن الديمقراطية والحرية[3].

كان سارتر إذن يدرك جيدا أن ليس بإمكان الكتاب أن يُغير العالم، ولكن هذا الوعي بقصور الكتابة لم يمنعه من اعتبارها فعلا أساسيا، بل مركزيا بالنسبة للروائي تحديدا، "هذا الإنسان الحر الذي يتوجه إلى أناس أحرار بالضرورة سواء أتناول في أدبه الأهواء الفردية أم هاجم النظام الاجتماعي برمته". وسبب ذلك في نظره أن الحرية هي الموضوع اليتيم الذي يتعين على الناشر أن يعالجه. وهو ملزم بمقاومة الاستبداد والفاشية لأن "كل محاولة لاستعباد قرائه تهدد فنه مباشرة"، فضلا عن حياته[4]. ويخلص سارتر من ذلك إلى أن إرادة الحرية هو هدف كل من يمسك بالقلم. وعليه، فإن الناشر حالما ينخرط في عالم الكتابة، يصبح بخياره أو رغما عنه، كاتبا ملتزما[5].

أن يقترن فعل الكتابة بالحرية بصورة عضوية يعني أن الكاتب يتوجه بالضرورة إلى "قارئ عالمي"، أو بعبارة أخرى "إلى الإنسانية قاطبة"[6]. وفي هذا الإطار، تكمن وظيفته أساسا في "تنقية" الحرية من شوائب الأهواء والعرق والطبقة والوطن التي علقت بها

---

[1] ن. م.، ص: 29.

[2] ن. م.

[3] ن. م.

[4] ن. م.، ص: 72.

[5] ن. م.، ص: 71.

[6] ن. م.، ص: 72.

ليرقى بها إلى مستوى القيم الإنسانية المشتركة[1]. إن مجرد أن يمسك الكاتب بالقلم يجعل منه "ضميرا خارج الزمان والمكان"، ويتحول بذلك إلى تجسيد حي "للإنسان الكوني"[2]. وفي هذا الإطار يصبح الأدب تجسيدا للحراك الذي يتسنى به للإنسان أن ينعتق في كل لحظة من ربقة التاريخ، أي أن يمارس فعل الحرية[3]. ويقرر سارتر في هذا السياق أن كل محاولة من الناثر النأي بفكره وأدبه عن الهموم الاجتماعية والتأنق في الظواهر الشكلانية والتقنية، حرصا منه على استقلالية الأدب، إنما تخدم في حقيقتها مصالح التوجهات المحافظة صلب المجتمع[4].

الحرية هي جوهر الكتابة وهدفها الأسمى، لا يُقبل الكاتب على الورق إلا ممتطيا صهوتها، لينازل "الشر القاهر الذي ينخر العالم دون أن يقدر على إفنائه تماما"[5]. والشر هو الظلم والاستبداد اللذين يستهدفان الحرية، وهو أيضا في المجتمع الطبقي المعادي جوهريا لقيم العدالة والمساواة والانعتاق. ووظيفة الأدب هو أن يدفع بالإنسانية نحو أفق "الخير" المتمثل في إقامة مجتمع تزول فيه الفوارق الطبقية[6]. أن تكون الكتابة "منازلة" أو "مبارزة" يعني أولا أن "الكلام في نظر الكاتب الملتزم هو في مقام الفعل الذي يغير العالم عندما يعري فيه نواقصه. ويقرر سارتر في هذا المقام أن تسبق الكشفَ إرادةُ التغيير"[7]. وهكذا ينتفي، حسب سارتر، التعارض الظاهر القائم بين الكلام والفعل. ورغم إقراره أن الكتابة لا يمكن أبدا أن تتساوى بالفعل، وأن الكاتب لا يؤثر في قرائه بصورة مباشرة، فقد قرر، على عكس ذلك، أن الروائي يتوجه، عبر كتبه، إلى نوازع الحرية في قرائه فيستثيرها ويحفزها على الحركة.

---

[1] ن. م.، ص: 70.

[2] ن. م.، ص: 75.

[3] ن. م.، ص: 111.

[4] ن. م.، صص: 111-112.

[5] ن. م.، ص: 162.

[6] ن. م.، ص: 72.

[7] ن. م.

ويخلص سارتر من ذلك إلى أن الأثر الكتابي هو شرط أساسي لفعل التغيير[1] وأن الكتابة هي ضرب من الفعل الحربي، خاصة وأن الكاتب، أسوة بالجندي، يسعى لإقامة "المدينة الفاضلة". ويعتبر سارتر هذا الفعل فعل انعتاق لأنه ينخرط في مسار التاريخ، باعتبار أن هذا الأخير يتقدم ضرورة نحو الأفضل.

هذا التصور "الساذج"، في نظر جورج باتاي، لفعل الكتابة يقوم على مسلّمة لا تختلف في جوهرها عن المسلمات الغيبية، مفادها أن مفاهيم "الخير" و"الشر" و"التاريخ" "والحرية"، وما في معناها، هي مفاهيم ثابتة، ومشتركة بين البشر جميعا، فضلا عن طبيعتها النفعية البديهية التي تحولها إلى قيم أصيلة في سلم القيم التي يتعين على الأدب، حسب جورج باتاي، أن يستهدفها بصورة مباشرة، باعتبارها جزءا لا يتجزأ من منظومة النظام، وأن النظام – أي نظام – هو عدو موضوعي للحرية التي يقوم عليها فعل الكتابة. وقد قصر جورج باتاي همه، في رده على جان بول سارتر، على شرح سوء الفهم الأزلي حول دور الكاتب ومعنى فعل الكتابة. وفي هذا الاتجاه، يقر باتاي أنه، وإن كان ليس ضد العقل والنظام الذي يفرزه بصورة مبدئية، إذا ما تأكدت الضرورة إلى ذلك، فهو يعتبر أن أجمل ما في الوجود وأعظمه أثرا على الإنسان هو ما يفيض عن الحاجة النفعية، ذلك الذي يدمر إذ يخلب اللب حتى ليكاد يكون فوق طاقة الاحتمال[2].

وبناء على العلاقة العضوية التي تربط الحقيقة بالفظاعة والكدر، يقرر باتاي أن "الحياة هي الرغبة في كل ما يمكن التعلق به بدون حدود"[3]. وموضوع الرغبة هذا لا يتوافق في الغالب مع الاتجاه الذي يقرره الذوق العام، كما هو الشأن مثلا مع المسألة الجنسية [érotisme] التي جعل منها باتاي قضية مركزية يمكن من خلالها النفاذ إلى حقيقة الإنسان التي لا تكون، على حد تعبير موريس بلانشو [Maurice

---

[1] ن. م.، ص: 28.

[2] ن. م.، ص: 163.

[3] **رسالة إلى روني شار**، مصدر سابق، ص: 20.

"إلا فاضحة"[1]. وفي هذا الإطار يعبر باتاي عن ضيقه بطغيان النزعة [Blanchot] الإنتاجية في تصور فعل الكتابة الأدبية على حساب ما يعتبره هو جوهر هذا الفعل، والذي يختزله في مصطلح مركزي لديه هو "المخاطرة" أو "المجازفة" [la mise en jeu]، يقرر من خلاله أن اللذة تقدر كميا [volume] وأن المجازفة يجب أن تقدر باعتبار قوتها وشدتها [intensité].

نستنتج مما تقدم أن باتاي، خلافا لسارتر، يجرد فعل الكتابة من التوظيف النفعي، الذي يحول الأدب إلى مجرد أداة في خدمة أهداف منافية له جوهريا، ويقصر دوره على ضرورة "خلط الأوراق"، كما قرر ذلك، متحدثا عن تجربته الخاصة، في الحديث الذي أجرته معه مادلين شازال [Madeleine Chapsal]. ويعني باتاي بخلط الأوراق ربطه في كتاباته، "بصورة مشاكسة وصادمة وفاضحة، الفكر الديني في أعمق تعبيراته بالضحك"[2]، وهو ما يفضي حتميا، حسب رأيه، إلى فتح عالم النظام والتناسق (أي النظام القائم) على الهوامش والتخوم التي يتجاهلها عادة أو يزدريها. وفي هذا السياق يتنزل حديث باتاي عن البطل السادي، لا باعتباره مثالا يحتذى، ولكن لأنه يجسد بكل وضوح قيمة فعل المجازفة كشرط أساسي لفعل الكتابة. ويوضح باتاي موقفه هذا بقوله: "لسنا معنيين بالضرورة للقيام بالقفزة التي أنجزها ساد على وجه الخصوص في وصفه لهذه الشخصيات المتوحشة. ولكن، إن لم يكن من الضروري أن نتصرف كهذه الكائنات، فإن التجاوز الذي يفترضه سلوك هؤلاء الوحوش هو الطريقة الوحيدة لتقدير عرض الهوة"[3] التي تفصلنا عنهم، أي بين ما هو كائن فعلا وما هو كائن افتراضا.

من هذا المنطلق بالذات قام باتاي بنقد الصورة الرومانسية للكاتب الملتزم، كما رسمها له سارتر في كتابه الذي أشرنا إليه آنفا، مقررا أن الأدب ليس في خدمة

---

[1] موريس بلانشو، **الكتاب القادم**، غاليمار، سلسلة "دراسات"، باريس، 1959، ص: 262.
[2] مادلين شازال، **خمسة عشر كاتبا**، غاليمار، باريس، 1951، ص: 18.
[3] **الأعمال الكاملة**، ج. 7، ص: 451.

"الخير"، ولا يتعين عليه أن يشعر أنه مضطر للاضطلاع بهذه المهمة، حتى ولو رغب في ذلك، لأن هذا الدور يتعارض مع جوهر فعل الكتابة. فربط الأدب بالخير – وأي خير هو المقصود هنا؟ – يحيد به عن وظيفته الفطرية ويحوله إلى مجرد دولاب من دواليب آلة العمل والإنتاج. ذلك لأن "جوهر الأدب، يضيف باتاي، أقر الكاتب بذلك أم لم يقره، يتجلى في التبذير، وفي انعدام الهدف المحدد، ويتجلى في الهوى الذي ينخر الكائن، لا غاية له خارج ذاته، كل همه أن ينخر"[1].

وحتى لو افترضنا جدلا أن على الأدب أن يضطلع بمهمة الدفاع عن مثال ما، فإن هذا الأخير لا يمكن أن يتماهى مع المنظومة الأخلاقية القائمة بسبب "التنافر بين الأدب والتصور الساذج للأخلاق"[2]. ويفسر باتاي هذا التنافر أولا باستحالة فعل الكتابة بدون الحرية، وثانيا بسبب النزعة الحركية، كما نظَّر لها سارتر، الرامية إلى جعل الأدب خادما طيعا "لمشاريع المجتمع النفعي". عندما يقع "الكاتب الحق" في هذه الخطيئة فإنه يجرد أعماله، على افتراض أنها أدت الوظيفة التي أُنجزت من أجلها، من "حقيقتها المطلقة"[3]. ويفسر باتاي رفضه القاطع لربط الأدب بأغراض نفعية، كما هو الشأن لدى سارتر، بكون "الأدب، أسوة بالحلم، هو تعبير عن الرغبة – أو موضوع الرغبة – وهو يفترض تبعا لذلك غياب الإكراه"[4].

إن ما يرفضه باتاي رفضا باتا، في نظرية الالتزام كما قررها سارتر، هو حطها من شأن الكتابة عندما جعلت منها فعلا تعويضيا، تقتصر وظيفته على إنتاج المعنى. ويعتبر باتاي أن الكتاب الذين يمارسون فعل الكتابة وفقا للمقولة السارترية، هم من "الكذابين والعميان"[5]. ويقرر، بناء على هذا، أن "من حق الكاتب أن يقتصر على الصمت كخيار وحيد، أو أن يجنح إلى هذا الانعتاق العاصف الذي يتمثل في إضافة

---

[1] **رسالة إلى روني شار**، مصدر سابق، ص: 25.

[2] ن. م.، ص: 22.

[3] ن. م.، صص: 23-24.

[4] ن. م.، ص: 22.

[5] ن. م.، ص: 18.

شيء ما إلى النظرة المحيرة، تلك التي تسحر وترعب – وهي تلك التي تتجلى للإنسان في نفسه على الدوام"[1].

يبرر باتاي رفضه للفعل الأدبي كفعل حركي من منطلقات عملية بحتة تقوم على حقيقة، بديهية لديه، مفادها أن "التنديد اللفظي"[2] هو فعل عبثي. ويذهب باتاي أبعد من ذلك عندما يقرر، متلاعبا بالمقولة الماركسية الشهيرة، أن "الفعل هو، من كل أنواع الأفيون، ذلك الذي يؤدي إلى أعمق حالات النوم"[3]. ويفضي باتاي من كل هذا إلى نتيجة أولية عبر عنها بقوله إن "الحديث الذي لا يصاحبه فعل يسبب النتانة"[4]، في إشارة منه إلى الموت. وفي نقده للأسس التي تقوم عليها نظرية الالتزام لدى سارتر، أضاف باتاي أن صاحب "الوجود والعدم" تناسى أن الالتزام لا يمكن أن يتحقق بمعزل عن الحرية، ونظر "لالتزام يقوم على الإكراه"[5].

قد يتبادر إلى الذهن، بناء على ما تقدم، أن جورج باتاي يناهض مفهوم الالتزام في أساسه لارتباطه بمفهوم الحركة والهدف اللذين يقوم عليهما صرح النظام النفعي. والحقيقة أن باتاي، رغم رفضه المبدئي لكل أنواع التوظيف التي من شأنها أن تشوه طبيعة الأدب، لا يمانع في أن يضطلع الكاتب بمهمة تعليمية، تتمثل في "ضرورة أن يأخذ الكاتب على نفسه أمر البرهنة على أن الإنسان سيظل على الدوام محل إبهام"[6].

وبناء على هذه النتيجة يرى باتاي أن دراسة أعمال الماركيز دو ساد أمر ضروري لأنها تصلح الإنسان مع الهول الذي يكون جزءا لا يتجزأ من ذاته. وأهمية ساد تكمن بالتحديد في كونه "كان على يقين أنه قام، على الصعيد المعرفي، باكتشاف حاسم

---

[1] ن. م.، ص: 22-23.

[2] ن. م.، ص: 18.

[3] ن. م.

[4] ن. م.، ص: 19.

[5] ن. م.

[6] ن. م.

عندما أقام الدليل على أن الجريمة هي مصدر التذاذ للإنسان، تشبع فيه نوازعه ورغائبه الأكثر قوة"[1]. فإن كان للأدب من وظيفة، يشترك فيها مع الفلسفة، فإنها تتمثل في إماطة اللثام عن هذا الجانب المظلم أو الملعون [part maudite] في الإنسان. وأهمية الماركيز دو ساد بالذات أنه "يمنحنا فرصة الوقوع في هاوية الرعب، هاوية يجب علينا أن ندركها جيدا"[2].

ويفضي باتاي، من كل ما تقدم، وعلى النقيض تماما من سارتر، إلى أن الأدب يكتسب معناه وقيمته من كونه أولا "فعل أساسي أو لا يكون"، وأنه بصفته هذه مرتبط ارتباطا عضويا بالشر، بل بأشد أشكال الشر حدة. وفي هذه العلاقة بالذات تكمن قيمته المطلقة"[3]. فإن كان من ضرورة للالتزام، فإنه لا يجب أن يخرج عن هذا الإطار، ولا أن يتعدى مهمة التدليل على أنه "يوجد داخل كل إنسان قطرة من أريال [Ariel] وقطرة من كاليبان [Caliban]، إضافة إلى قدر منعدم الشكل والهوية [..]، نمثله للتبسيط بالفحم الذي يمكن أن ينقلب حجرا كريما في حالة ما ثابر أريال أو استقال"[4]. بهذه الصورة مثل باتاي لتلازم مبدأي الشر والخير في الذات البشرية، ليفضي من ذلك إلى أن مقدار "الفحم" فيها، الذي يرمز إلى ما أسماه "جزءها الملعون"، يقع خارج نطاق العقل، وبالتالي خارج إرادة الإنسان. هذا الجانب المظلم من الذات الإنسانية تفصح عنه تخوم الجنس والموت والجنون الخارجة عن كل الحدود.

---

[1] **الأعمال الكاملة**، ج. 10، صص 168-169.

[2] الأعمال الكاملة، ج. 12، ص 455.

[3] الأعمال الكاملة، ج. 9، ص: 171.

[4] "رسالة إلى روني شار"، مصدر سابق، ص: 16.

جَانْ بُودْرِيَّارْ: عِنْدَمَا يُهاجِمُ باطَايْ الْمَبْدَأَ الْمِيتَافِيزِيقِيَّ لِلْاقْتِصَادِ

إن الاستمرارية[1]، والسيادة والحميمية والرحابة المحايثة [immensité immanente] جميعها تشكل لدى باطاي فكرة واحدة، فكرة أسطورية واحدة من وراء مصطلحات متعددة: "أنا من أولئك الذين ينذُرون البشر لأمور أخرى غير الإنتاج المتزايد دون توقّف، ومن الذين يُحرّضونهم على الرعب المقدّس".

إن المقدس هو مجال "الجانب اللعين" بأتم معنى الكلمة (المقالة المركزية لهذا المجلد السابع من مؤلفات باطاي) مجال البذل قربانا [dépense sacrificielle] والترف والموت؛ هو مجال اقتصاد "عام" يتضارب و كافة مُسلّمات الاقتصاد بالمعنى الحقيقي (هو اقتصاد إذ يتعمّم يتجاوز حدوده، ويتجاوز حقا حدود الاقتصاد السياسي، وهو ما يعجز عنه الاقتصاد السياسي، والفكر الماركسي برمّته وفق المنطق الداخلي للقيمة). وهو أيضا مجال اللامعرفة.

ومن باب المفارقة أن الأعمال المجموعة هنا هي بوجه من الوجوه **كتاب المعرفة الواجبة** [*Le Livre du savoir*] لباطاي، ذلك الكتاب الذي فيه يحاول أن يقيّم دعائم رؤية، هي في نهاية الأمر في غير حاجة إلى دعائم، بل ينبغي لاندفاعها نحو المقدس، في توهجه الهدّام، حتى إنكار ذلك النمط من التمجيد ومن العرض الخطابي الذي هو "الجانب اللعين" و"نظرية الدين". "يتأسس موقفي الفلسفي، فيما يتعلق بالمجموع، على اللامعرفة لأن المعرفة لا تتعلق البتة إلا بالتفاصيل". لذلك يتعيّن قراءة تلك الشذرات التمجيدية بشأن جانبي كل من المعرفة وعدم المعرفة.

— المبدأ الأساسي —

تتمثل الفكرة المركزية في أن الاقتصاد الذي يتحكم في مجتمعاتنا ناجم عن انحراف مُخلّ عن المبدأ الإنساني الأساسي، الذي هو المبدأ الشمسي المتمثل في الإنفاق

[1] راجع الأصل في: *La quinzaine littéraire*, n°234, juin 1976.

(البذل). يتصدى فكر باطاي مباشرة، من وراء الاقتصاد السياسي المحض (الذي ينتظم، من حيث جوهره، حول قيمة التبادل) إلى المبدأ الميتافيزيقي للاقتصاد: أي المنفعة. والمنفعة هي المستهدفة من حيث أصلها -وهي المبدأ الإيجابي ظاهرا من رأس المال: أي المراكمة، و الاستثمار، والإهلاك، وهو ما كانت تشهده جميع المجتمعات السابقة، وهو عجز لا يُصدّق، يقطع الكائن البشري عن كل سيادة ممكنة. فالاقتصاد بتمامه وكماله يقوم على ما لا يمكن إنفاقه ولا يعرف كيف يتم إنفاقه، على ما لا يمكن أن يصبح موضوع قربان — وإذن فهو كلّه بقية باقية، وهو ظاهرة اجتماعية محدودة، وما أراده باطاي هو الوقوف ضد الاقتصاد بصفته ظاهرة اجتماعية محدودة — هذا هو مبدأ الاقتصاد العام.

إن مبدأ المنفعة (قيمة الاستعمال) يستوي والطبقةَ البورجوازية، تلك الطبقة الرأسمالية التي يعرّفها "باطاي" (على عكس ماركس) تعريفا سلبيا: فهي التي لم تعد تعْرف كيف تنفق. كما أن أزمة رأس المال، وحتميته المتنامية، ونهايته المحايثة ليست مقترنة كما هو الشأن عند ماركس بتاريخ ما، وبحوادث جدلية معينة، ولكن بذلك القانون الأساسي المتمثل في العجز عن الإنفاق، الذي يُسلّم رأس المال لسرطان الإنتاج وإعادة الإنتاج اللامحدود. لا وجود لمبدأ ثورة عند باطاي: "إن رعب الثورات لم يتسبب إلا في إخضاع الطاقة البشرية أكثر فأكثر للصناعة." ولكن يوجد مبدأ التضحية — وهو مبدأ السيادة الوحيد الذي يجعل انحراف البورجوازية ورأس المال بالتاريخ الإنساني قاطبة يمرّ من المقدس المأساوي إلى النافع الهزلي.

إن هذا النقد نقد غير ماركسي، وهو نقد أرستقراطي. لكنه يستهدف المفيد، والغاية الاقتصادية باعتبارها مسلّم المجتمع الرأسمالي. وفي حين أن النقد الماركسي ليس إلا نقدا لرأس المال متأتيا من صميم الطبقات الوسطى والبورجوازية الصغرى، التي كانت لها الماركسية منذ قرن إيديولوجيا كامنة: هذا نقد لقيمة التبادل، ولكنه تمجيد لقيمة الاستعمال- وإذن فهو في آن واحد نقد لما كان لا يزال يجسم عظمة رأس المال التي تشارف الهذيان، ولِما بقي ضمنه من ديني أضفيت عليه صفة

الدنيوي[1]: ألا وهو الاستثمار مهما كان الثمن، حتى على حساب قيمة الاستعمال. أمّا الماركسية، فهي تبحث عن استعمال سليم للاقتصاد. وإذن فهي ليست سوى نقد بورجوازي صغير محدود، وخطوة إضافية نحو تتفيه الحياة، نحو "الاستعمال الجيد" للمجتمعي! أمّا "باطاي" فهو على عكس ذلك، يكنس كامل ذلك الجدل العبودي من وجهة نظر أرستقراطية، جدل السيد المتصارع مع موته. ويمكن أن ننعت هذا المنظور بأنه سابق للماركسية أو لاحق لها. مهما يكن من أمر فليست الماركسية سوى أفق رأس المال المتحرّر من الوهم — لأن كل ما هو سابق أو لاحق لها أكثر منها جذرية.

وما يظل محل ريبة عند باطاي (ولكنها ريبة لا يمكن التخلّص منها)، هو معرفة ما إذا كان الاقتصاد (رأس المال)، الذي يجد توازنه على أساس من نفقات عبثية [absurde]، ولكنها لا تخلو البتة من فائدة، وليس لها البتة طابع التضحية أو القربان (أي الحروب، والتبذير/الإتلاف [gaspillage]..) لا تخترقها مع ذلك من أقصاها إلى أدناها دينامية قربانية؛ أفليس الاقتصاد السياسي في نهاية الأمر سوى تحوّل مناقض للقانون الكوني الوحيد الذي هو قانون الإنفاق؟ ثم أوليس تاريخ رأس المال سوى انحراف كبير نحو هلاكه الشخصي، نحو نهايته الخاصة بصفته قربانا؟ لأنه لا يمكننا في نهاية الأمر أن لا ننفق. ولعل دوامة أطول تجرّ رأس المال إلى ما وراء الاقتصاد نحو تدمير قيمه الخاصة، أم ترانا إلى الأبد في نطاق ذلك الإنكار للمقدّس، في دُوار المخزون، الذي يعني انفصام التحالف (أي التبادل الرمزي في المجتمعات البدائية) وانقطاع السيادة؟

كان باطاي مولعا بالتطور الراهن لرأس المال نحو تعويم القيم (الذي ليس تحويلا لها) وانحراف الغايات (الذي ليس، على العكس من ذلك، عدم الجدوى على الإطلاق

---

[1] إن الرغبة البروتستانتية العارمة في الأعمال (إنما المال المكتسب مال لإعادة الاستثمار.. لا قيمة له ولا معنى إلا في ما يُلزم به من إثراء لا نهاية له)، فيما تتضمنه من ضرب من العته والتحدي والرغبة التي لا تقاوم في الفعل على نحو كارثي - هي ضرب من الرغبة العارمة الصوفية، تتعارض مع العمل، والاستعمال السويّ للعمل والاستفادة من ثمرته.

أو مجانية الضحك العبثية والموت.) إلا أن مفهومه، مفهوم الدفاع لم يسمح بتحليله على نحو جيّد: فهو ما يزال مفرطا من حيث طابعه الاقتصادي، ومفرط القرب من الصورة المناقضة للمراكمة، تماما كما أن الاختراق مفرط القرب من الصورة المناقضة للمحظور[1]. ففي ظلّ نظام ليس نظام النفعية، ولكن في نظام للقيمة عشوائي، لا يكفي الإنفاق المحض للتحدي الجذري، مع الاحتفاظ بالسحر الرومانسي للعبة مناقضة لما هو اقتصادي-مرآة مكسورة للقيمة التجارية، ولكنها عاجزة ضد المرآة التائهة للقيمة البنيوية. يؤسس باطاي اقتصاده العام على "الاقتصاد الشمسي" الذي بدون مقابل، على الهبة التي تهبنا إياها الشمس من جانب واحد: إنها نظرية في نشأة عالم الإنفاق، تنتشر على أنثروبولوجيا دينية وسياسية. ولكن باطاي قرأ موس قراءة غير سليمة: فالهبة من جانب واحد لا وجود لها. وليس ذلك قانون الكون. فقد كان يتعيّن عليه هو الذي أحسن استكشاف التضحية البشرية لشعب الأزتيك أن يعرف مثلهم أن الشمس لا تهب شيئا، وينبغي تغذيتها بالدم البشري حتى تشعّ. يجب تحدّي الآلهة بواسطة القربان حتى تستجيب بتقديم الخيرات الوفيرة. بعبارة أخرى، فإن جذر التضحية/القربان والاقتصاد عامة ليس البتة محض الإنفاق ومجرد الإنفاق، أو ما لست أدري من دوافع الإفراط يأتينا من الطبيعة، ولكن هو عملية تحدّ مستمرة.

— باطاي يُطَبْعِنُ [naturaliser] مُوسْ —

إن "فرط الطاقة" ليس مصدره الشمس (من الطبيعة) ولكن مزايدة مستمرة لعملية التبادل- وهو عملية رمزية واضحة لدى "موس"، ليست الهبة (لأن تلك هي الصوفية الطبيعانية التي يسقط فيها باطاي) ولكن من الهِبَة المضادة -وهي العملية الوحيدة الرمزية حقا، وتقتضي فعلا الموت بصفته ضربا من الإفراط الذي يبلغ أقصاه- ولكن ليس باعتباره نشوة فردية، إنما باعتباره المبدأ الأقصى للتبادل الاجتماعي.

---

[1] إن الإتلاف (حتى المجاني)، هو دوما غامض، بما أنه الصورة المعاكسة للإنتاج، ويندرج ضمن الاعتراض على أن الإتلاف يقتضي أولا الإنتاج، وهو ما لا يمكن لباطاي أن يعترض عليه إلا بالشمس.

وبهذا المعنى، يمكن أن نُآخذ باطاي على أنه قد "أضفى صبغة طبيعية" على موس (ولكن ضمن دوّامة ميتافيزيقية هي من العِظم والروعة بحيث لم تعد المآخذة مآخذة)، وعلى أنه جعل من التبادل الرمزي ضربا من الوظيفة الطبيعية للكَرَم، هي في آن واحد دينية إلى حد الإفراط في ما تتسم به من مجانية، وقريبة إلى حد الإفراط، في المقابل من مبدأ المنفعة ومن الصعيد الاقتصادي الذي تجتهد في خرقه دون أن يغيب عن نظرها البتة.

في "مستوى مكافئ للموت" [à hauteur de mort] نعثر على باطاي ويظل السؤال الحقيقي المطروح هو: ترى لماذا شعُر البشر جميعهم بالحاجة وشعروا بضرورة قتل كائنات حية على نحو طقوسي؟ وبسبب عدم استطاعتهم الإجابة عنه، ظل جميع البشر جاهلين لماهيتهم [dans l'ignorance de ce qu'ils sont] وتوجد إجابة عن ذلك تحت نص باطاي وفي تضاعيفه ولكن حسب رأيي ليس في مفهوم الإنفاق، ولا في ما حاوله من ذلك النوع من إعادة البناء الأنثروبولوجي انطلاقا من المعطيات "الموضوعية" التابعة لزمانه: أي الماركسية، وعلم الأحياء، وعلم الاجتماع والأثنولوجيا، والاقتصاد السياسي، وقد حاول رغم كل شيء تجميع إمكاناتها الموضوعية، ضمن منظور ليس على وجه التحديد بالجينيالوجيا (علم الأنساب) ولا بالتاريخ الطبيعي، ولا بمجموع هيغلي، ولكن بعض من كل ذلك.

إلا أن اقتضاء المقدس، لا خلل فيه ضمن ما يطرحه من إثبات أسطوري، والإرادة الجدلية تخرقها على الدوام رؤية باطاي الباهرة، و "موضوع معرفة" دوما في "درجة الغليان"، يجعل أن الاعتبارات التحليلية أو التوثيقية نفسها تتسم دوما بتلك القوة التي للأسطورة والتي هي قوام قوة الكتابة الوحيدة باعتبارها قربانا.

[ترجمة: محمد عجينة]

جَانْ جَاكْ پُّوفِيرْ: بَاتَايْ، كَاتِبٌ مَجْهُولٌ

ا لتقيتَ جورج باتاي في بداية الخمسينات، في إطار عملك كناشر.

● بالعودة[1] إلى أواخر أربعينيات، لم يكن باتاي معروفا عند الجمهور إطلاقا. لكني عندما قابلته وجدت نفسي أمام شخص يتمتّع بجاذبية استثنائية ومع ذلك كان مجهولا تماما. وقد بدأت قراءة باتاي قبل أن أتعرّف عليه. ففي سنة 1943 — كنت حينذاك في السابعة عشر — قرأت، بشكل متزامن، كُلا من رواية **120 يوما في سدوم** لساد و**حكاية العين** لباتاي. تركني هذان النصان مشدوها، إذ رغم أني كنت قد اطلعت على عدد كبير من الكتب والدوريات الإيروسية المصوّرة مع ذلك لم أشهد أبدا مثل تلك الكتابة. وكل ما كان يُقال حول باتاي لم يزدني إلاّ ذهولا: حلقاته الدراسية، مدرسة دي شارت، عمله محافظا في المكتبة الوطنية.. إنه شخصية أسطورية. إلى أن دخل في أحد أيام سنة 1951 مكتبتي في شارع دي سيزو [الذي تحوّل اليومَ إلى مطعم ياباني]. عرض نفسه بوسامة استثنائية ولباقة فاتنة ومتدفقة: يا لنظرته وهو في سنّه الثامن والخمسين؟ وجدته مثيرا للإعجاب والاحترام إلى أقصى حدّ، فأصبحنا أصدقاء. كان يهتمّ بسَاد الذي كنتُ قد شرعتُ في إصدار كتبه عَلَنا باسمي كناشر، وجرت بيننا نقاشات طويلة، تخلّلتها اختلافات، خاصة في ما يتعلّق بالخطيئة. فقد كان يرى أنَّ الإيروسية غير قابلة للتصوُّر من دون خطيئة، وهو ما لم أكن مقتنعا به. ثمّ دارت نقاشاتنا حول ساد: في تلك الفترة كنت أكنّ لباتاي احتراما كبيرا بلغَ حدَّ أني لم أجرؤ على القول له بأن فكرته عن ساد كان يعوزها الصواب. أظنُّ أن باتاي تحدّث عن ساد نتيجة قراءته لكتاباته، ولم يتحدّث أبدا عن ساد نفسه. فقد كان يرى في ساد لون الموت في حين كان ساد هو الحياة عيْنُها. لم يعد لباتاي في الخمسينيات أيّ ناشر: فدار النشر غاليمار لم تعد ترغب فيه، ومينوي كانت تحتفظ بمخزون من كتابه **النصيب الملعون** بعدما عرضته بسعر

[1] راجع الأصل في: *Magazine littéraire*, juin 1987.

مُخفَّض دون أن يجد له مشترين. وتدريجيا، أتاني باتاي بكل ما كان عنده.. في سنة 1957 نظمتُ حفلاً في حانة البون روايل، بمناسبة صدور عناوين **الإيروسية**، **زرقة السماء** و**الأدب والشرّ**، وصادَف ذلك بلوغ باتاي سن الستين، فحضر غاستون غاليمار، لكن حضوره لم ينتج عنه أي رفع في المبيعات. أول مخطوطة قدّمها لي باتاي كانت هي **زرقة السماء**، ولم يسبق نشرها من قبل، فطبعتُ ألفي نسخة منها لا غير، ومع ذلك تبقى لي الكثير منها بعد مرور خمس سنوات أو ست. ثم قدّم لي مخطوط **الميت** قائلا إنه في حاجة إلى مال، فاحتفظت بالنص القصير جدا لسنوات عديدة دون أن أعرف ما عساني أفعله به إلى أن طلبتُ من بيار فوشو ذاك التصميم المذهل لـ **حكاية العين** و**الميت** فبيعا في صناديق صغيرة.

ثم كان *دموع إيروس*، وهو كتابه الأخير..

● تمَّ ذلك عندما اشتد المرض بجورج باتاي. كان مرعبا وآسرا، هذا النوع من التفكك الفكري كان مروعا. انتزع لو دوكا الكتاب من باتاي قسطا قسطا: كان يحمل إليه المسودّات التي كان يتولى لو دوكا تصحيحها شخصيا، ثم يسأله عما إذا كانت مطابقة لرغبته، إلاّ أن الكتاب مُنعَ. ثم بعد موت باتاي، بدأ الحديث عنه، فكان نص **أمي** أول كتبه يصادف رواجا (بيعت منه 35 ألف نسخة في ستة أشهر)، وقد تحقق ذلك لكونه رواية بالإضافة إلى صدور مقالات طويلة حول باتاي. وحالما تألقت شهرته، اختلق الناس قصصا حول حياته: روى لي بعضهم أشياء — لا أعرف هل صحيحة كانت أم خاطئة؟ — عن الأوساط المتهتكة والماجنة التي كان يرتادها.

مع أنَّ باتاي كوَّن علاقات بأناس متنوعين جدا: من الأكثر استقامة إلى الأكثر إثارة للريبة.

● نعم، مثل علاقته بشات، تلك الشخصية المدهشة التي سأتحدّث عنها في مذكراتي. وشات هذا كان بائع كتب في بيته بشارع مونمارتر، وكان أحد اختصاصاته الكتب الإيروسية التي كانت آنئذ تُهرَّبُ، وتباعُ سرًّا. مثّل شات الصورة النمطية للمهووس جنسيّا: وهو يتبدّى كذلك على نحو مذهل، رغم كونه رجلا صاحب أخلاق

وتربية رفيعين. فحينما كنّا نزوره، كان علينا أن ننقر على الباب بطريقة متفق عليها، ثم نقف قبالته كي يتسنى له رؤيتنا من ثقب الباب، وكان يتعين علينا أن نعلن عن أنفسنا. وكان شات على حق في كل تلك الإجراءات، لأنه كان من الضروري للمتخصّصين في بيع الكتب الإيروسية آنذاك أن يلزموا الحيطة والحذر. كان شات صديقا حميما لباتاي ويعرف لور. كما حدّثني عن حكايات جرت له مع فوتريي. كان باتاي، في حوالي سنة 1930، شابا وسيما جدّا بما يتفق مع الموضة، إذ كان أنيق اللباس وحازم الملامح في آن، كما كان أيضا ذاك الرجل الذي يتحدّث عن القديس أوغسطين ويستشهد به في نصوصه. ذات مرّة، وأثناء عشاء عند پيير كلوسوفسكي، خاض الاثنان نقاشا لاهوتيا، فلم يتفقا على الإطلاق: تبادلا الاستشهادات، ثم واصلا النقاش باللاتينية، في حين صمت الباقون..

زخرف بعض كتب باتاي رسامونَ مثل فورتيي وبيلمير وهارولد وماسون،.. ما الذي دعا إلى ذلك؟

● يجب أخذ الأمر على بساطته. كان ذلك لحاجتنا الماسة إلى المال. كان شات هو من ينشر الكتب السرية كقصة **مدام إدواردة**. ففي هذا الكتاب، على سبيل المثال، تعلق الأمرُ بنوع من التركيب لنضمن قسطا من المال للرسام جان فورتيي، وآخر لجورج باتاي، ثم شيئا لي. أمّا باتاي، فلم يكن يعير اهتماما كثيرا لهذا الجانب. لما سلمني نص **الميت**، تمَّ التفكير لبرهة في إصداره مرفقا بصور، وكان بإمكان أي رسَّام أن يتولى العملية، وعندي انطباع بأن الأمر عند باتاي كان سيان. فهو من صنف الكتّاب الذين يقدّمون المخطوطة لناشريهم ويتركون لهم أن يتدبروا أمر إصدارها كما يشاءون.

إلى ماذا تعزو هذا التأثير الذي يمارسه فكر باتاي اليوم؟

● أتساءل، بمراجعة الأمر، ما إذا كنا إزاء فكر يشتغل بصيته بقدر ما يعمل بنفسه. القليل من الناس يتباهونَ بأنهم قد فهموا فكر باتاي؛ شخصيا، لا أجازف بادعاء ذلك، ذلك أنَّ فكر باتاي ليس قطعيّا البتة. فمثلا، عندما كتب أن "الإيروسية هي إقرار للحياة حتى داخل الموت" ماذا كان يعني بذلك؟ باتاي لم يجب أبدا. والنقطة

المحدَّدة الوحيدة التي تمكنتُ من الحصول على تعليق منه عليها هي الخطيئة.. كان يرفض دوما الإيضاح، كان مساره شعريّا أساسا، وكان يتحاشى أو لا يقوى على تفسير أي شيء؛ كان ينقل إلى القارئ حالة تطابقُ قلقا عميقا.

وهنا نجد معارضته لأندريه بروتون وأيضا لجان بول سارتر، وإن على نحو آخر..

● الفكر عند باتاي يشتغل منقطعا لذاته، في حين الفكرُ عند بروتون هو وسيط. فكر باتاي ليس تعليميّا بل هو تفكير يقترح رؤى ذاتية قد تتضح للآخرين بهذا القدر أو ذاك. أعجبني الاثنان، لكني كنتُ أجدني أقرب إلى أندريه بروتون عاطفيّا في البداية، ثم فكريّا بعد أن أخذني، من خلال قراءتي له كما بلقاءاتي معه، إلى فضاءات كنت أرغبُ في ارتيادها. أما باتاي، فلم يمنحني من الفضاءات ما كان يمكنني أن أرغب فعلا في ارتيادها، وكان بإمكانه أن يفعل ذلك لو أفصح عما يريد قوله – وهو ما لم يكن يقوم به على أية حال. وتصالحُهما، في نهاية حياتهما، يبدو مفاجئا، لكنه مفهوم. تساءلَ أناس من تلك القامة في غمرة الشعور بالبؤس المحيط بهم: إلى من نتحدث ما لم نتبادل الحديث؟ كانا قانطين من مستوى العصر. من مستوى سارتر، بالتأكيد. وكان الاثنان قادرين على التفاهم، لكن تفاهمَ القط والفأر..

هل كان لتلك المصالحة طابع عميق؟

● حدثني باتاي عن مصالحته مع بروتون، وقام بروتون بالشيء نفسه.. وهي خالصة عند بروتون لأن باتاي أنهى حياته الفكرية منطويا جدّا ومعتزلا: في اعتقادي، ربما كان يظنُّ بأنه لم يعد له أي شيء ينقله للآخرين. أمّا بروتون فواصل حضوره في كنف الانفتاح والاكتشاف والمبادرة: ولا شك أنه قد سعد لأنه لم يمت وهو في خصام مع باتاي الذي قضى في أصقاعَ تعاظم بُعدها.

[ترجمة:رويدة سالم، مراجعة:محمد أسليم]

اَلْفَرَاغُ

حاصرتنا ألسنة من لهب
وانفتحت الأرض تحت أقدامنا
واكتنفنا كمثل الهالة
صمت من حليب، من جمد، من عظم

*
* *

أنت المشوهة
قدري هشم أسنانك
قلبك فواق
أظافرك عثرت على الفراغ

*
* *

تتحدثين كمثل الضحكة
تقيم الرياح شعرك
يعجل القلق الذي يعتصر القلب
وتيرة سخريتك

*
* *

يداك خلف رأسي
قبلاتك الضاحكة لا تنفتح
لغير فقري الجحيمي

*
* *

تحت القبة القذرة
حيث تتدلى الخفافيش

عريك الرائع

ليس إلا كذبة بدون دموع

*

* *

صرختي تناديك في الصحراء

التي ترفضين ولوجها

صرختي تناديك في الصحراء

أين ستتحقق أحلامك

*

* *

فمي المشدود إلى فمك

ولسانك في أسناني

سيستقبلك الموت الشاسع

وسيخيم الليل الطويل

*

* *

بانتظار الكارثة

تلك التي سينطفئ فيها الضوء

سأكون مثل برد الموت

لطيفا في قلبك

*

* *

التجربة الجوانية

أنا لم أعد أرغب، أئن

لم أعد أتحمل

سجني

وبمرارة

أقول ما يلي:

أيتها الكلمات التي تخنقنني،

اتركنني لشأني،

أطلقن سبيلي،

بي عطش

لشيء آخر.

أريد الموت

عدم الإقرار بسلطان الكلمات،

تسلسل

لا رعب فيه،

حتى ليصبح الرعب

شيئا يُشتهى.

لا شيء يذكر

هذا الأنا الذي يمنحني كينونتي،

إلا أن يكون

قبولا جبانا بما هو كائن.

أكره

حياة الآلة هذه،

وأبحث عن صدع

صدعي،

حتى يتسنى لي أن أتحطم.

أحب المطر،

والبرق،

والطين،

الماء في المدى الفسيح،

غور الأرض،

ولكن كل هذا ليس أنا.

في غور الأرض،

آه يا جدتي،

خلصني مني،

فلست أرغب بعد اليوم أن أكون أنا.

*
* *

شبح يذرف الدموع

يا أيها الرب الميت

عين بلهاء

وشارب مبلل

سن يتيمة

أيها الرب الميت

أيها الرب الميت

أنا

كنت أكن لك حقدا

لا قرار له

وكنت سأموت من فرط الحقد

كغيمة

تتبدد[1].

[ترجمة: فرج الحوار]

[1] جورج باتاي: **الملائكي** وقصائد أخرى، صص. 63-64، غاليمار، 2008.

pulled

before

that. Has a musician

Also,

remark,

see if I making

the

next. There were so many

his mouth.

please, please ... it . . .

I hate to

beautiful, which

with me.

and talk about my

ed

He put his up on the seat

in the

the spot

ing when

ls old and p

softened all the tensio

you a pre cut. Did you know I

at his mouth. "No, I didn't know